تيسير خلف

الحركة النسائية المبكرة في سوريا العثمانية

تجربة الكاتبة هنا كسباني كوراني ١٨٩٢-١٨٩٦



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الحركة النسائية المبكرة
في سوريا العثمانية

تجربة الكاتبة هنا كسباني كوراني
1896–1892

الحركة النسائية المبكرة
في سوريا العثمانية
تجربة الكاتبة هنا كسباني كوراني
1892–1896

تيسير خلف



المـركز العـربي للأبحـاث ودراسة السيـاسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
خلف، تيسير
الحركة النسائية المبكرة في سوريا العثمانية: تجربة الكاتبة هنا كسباني كوراني 1892-1896/ تيسير خلف.
156 ص.؛ 24 سم.
يشتمل على ببليوغرافية (ص. 145-149) وفهرس عام.
ISBN 978-614-445-308-7
1. الشرق والغرب. 2. الحضارة العربية. 3. الحضارة الغربية - التأثير العربي. 4. البلدان العربية - العلاقات الثقافية - الغرب. 5. الغرب - العلاقات الثقافية - البلدان العربية. 6. المرأة في الحياة العامة - القرن 19 - تراجم. 7. المرأة العربية - تاريخ - القرن 19 - تراجم. 8. المرأة العربية - النشاط السياسي - القرن 19 - تراجم. 9. كوراني، هنا كسباني، 1870-1898. 10. المرأة العربية - أحوال ثقافية - القرن 19. 11. مؤتمر شيكاغو العلمي (1893: شيكاغو) أ. العنوان.
909.09174927092

العنوان بالإنكليزية

The Early Feminist Movement in Ottoman Syria: The Experience of Writer Hana Kasbani Kourani

by Tayseer Khalaf

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 0097440356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 0096119918378 فاكس: 0096119918 39
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، تشرين الأول/ أكتوبر 2019

المحتويات

تمهيد

اقتحمت هَنا كوراني مجتمع النخبة الأميركي بقوة، منذ لحظة اعتلائها منصة الخطابة في المؤتمر النسائي العالمي الأول الذي عُقد في شيكاغو في عام 1893، على هامش المعرض الكولومبي (إكسبو)؛ فكلِمتها المؤثرة بألفاظ إنكليزية بليغة أمام حشد كبير من الناشطات الآتيات من أصقاع مختلفة من المعمورة، متحليةً بزيها الشرقي المميز والمتسق مع ملامحها العربية اللافتة، جعلتها نجمة معروفة في صحافة العالم الجديد، وضيفة مميزة يشار إليها بالبنان في صالونات الطبقة البرجوازية. وبعد اختتام المعرض، أصبحت محاضِرة محترفة قرابة عامين، تستضيفها الملتقيات والمنتديات الأدبية والاجتماعية للحديث، بأسلوب أخّاذ مختلف، عن عوالم الشرق المبهمة، وعاداته وتقاليده، وأوضاع نسائه ورجاله!

بين سفرها إلى أميركا في نيسان/ أبريل 1893، حاملةً أفكارًا تمجد الأنوثة، وداعيةً بنات جنسها إلى التعلم خدمة للزوج والأولاد، وعودتها إلى بيروت في أواخر عام 1895، رافعة لواء النسوية بصيغتها الجندرية الليبرالية المبكرة، مرت بتحولات فكرية كبيرة، وانتقلت من ضفة فكرية إلى ضفة أخرى، حيث ستكون دراسة هذه التحولات نقطة الارتكاز الرئيسة في هذا البحث.

مع وفرة المعلومات والأخبار عن هَنا كوراني في المصادر الأميركية،لا نكاد نجد عنها في الأدبيات العربية إلا سيرة موجزة غير محققة، منشورة في أكثر من كتاب تراجم، أو في موسوعة متخصصة. لا بل إن المكتبة العربية تفتقر

إلى بحث علمي يضع تجربة هذه الرائدة في محل الدراسة أو النقد، خصوصًا أن دراسة تجربتها تساهم في تعميق وعينا بواكير نشوء الحركة النسوية في المشرق العربي، والاتجاهات الفكرية والفلسفية التي أثرت فيها؛ فهذه الحركة، كما يؤكد هذا البحث، لم تكن معزولة عن غيرها من الحركات النسوية في العالم، ولا عن حركة الإحياء الثقافي العربي في الولايتين العثمانيتين (سوريا وحلب)، وأيضًا في مصر الخديوية إبان نهضة القرن التاسع عشر.

إضافة إلى ذلك، تمدنا تجربة هَنا كوراني الأميركية، على الرغم من قصر تلك التجربة، بمادة غنية عن حالة نادرة من حالات التفاعل والمثاقفة بين الشرق والغرب، في وقت كانت السيطرة على النخب الغربية لأفكارٍ مسبقة تتنوع أصولها ومنابتها، من بقايا الحروب الصليبية إلى الاستعلاء المرتبط بالأفكار والفلسفات الحديثة، المواكبة للثورة الصناعية وعصر الاستعمار.

الحق أن هَنا كوراني كانت خلال العامين اللذين أمضتهما في الولايات المتحدة الأميركية خير سفيرة للمرأة العربية فيها وفي العالم الناطق بالإنكليزية عمومًا؛ إذ إنها حاولت، بكل ما تمتلك من ذخيرة لغوية ومحاكمة عقلية، تصحيح كثير من الأوهام والمفاهيم المغلوطة عن النساء الشرقيات خصوصًا، والمجتمع المشرقي بشكل عام، على الرغم من التحولات الجذرية التي طرأت على تفكيرها هناك.

اعتمدنا في هذا البحث المخصص لتجربة هَنا كوراني الإنسانية والفكرية والنضالية، منهجًا كرونولوجيًا خطيًا قسمنا بمقتضاه حياة رائدتنا إلى ثلاث مراحل: المرحلة **الأولى** هي مرحلة السفر إلى شيكاغو، وما حدث فيها من نشاط إعلامي، وما طرأ عليها من تحولات فكرية. والمرحلة **الثانية** هي مرحلة احتراف الخطابة، وتحولها إلى نجمة من نجمات المجتمع الأميركي، والمرحلة **الثالثة** هي مرحلة المرض والعودة إلى بيروت، وإعلان الأفكار الجديدة، ومحاولة تأسيس ناد للمرأة السورية.

أما مصادر الدراسة من المعلومات والأخبار، فإنها تعتمد بشكل رئيس على أرشيف الصحف والمجلات العربية الصادرة في بيروت والقاهرة

والإسكندرية في أثناء فترة الدراسة، وعلى أرشيف الصحف الأميركية المتاحة للباحثين في مواقع مدفوعة، خلال الفترة 1893-1898، إضافة إلى نصوص المحاضرات التي ألقتها رائدتنا في بيروت وشيكاغو من مظانها الأصلية المطبوعة والمحفوظة في بعض مكتبات الولايات المتحدة ولبنان، ورسائلها المنشورة في مجلة **الفتاة،** أوغير المنشورة والمحفوظة بصورتها الأصلية غير المحقَّقة في مكتبة إنديانابوليس العامة.

أجدني مدينًا بالشكر لكلٍّ من جمال باروت وخالد زيادة ومحمد مكية الذين لم يبخلوا بالملاحظات النفيسة حول شكل هذا البحث ومضمونه؛ لكي يظهر بصورة لائقة.

تيسير خلف

اسطنبول 27 أيار/ مايو 2019

مقدمة

هَنا كوراني وبيئتها الاجتماعية والثقافية

ولدت هَنا كسباني كوراني ونشأت وترعرعت في بيئة النهضة العربية المشرقية التي كانت تقودها بيروت بدأب لا يلين، سواء في مدارسها أو في صحافتها ومطبوعاتها أو في منتدياتها. وانعكس خطاب بيروت النهضوي بوعيه ولغته الجديدين في كل ما قامت به رائدتنا من نشطات اجتماعية وحملات توعوية، وفي مقالاتها المليئة بالحماسة والرغبة في التغيير.

يخبرنا أدهم الجندي في كتابه **أعلام الأدب والفن** أن تاريخ ولادة هَنا كسباني كانت في قرية كفرشيما المشرفة على بحر بيروت، في 1 شباط/ فبراير 1870[1]، وهو تاريخ يزيد عامًا واحدًا عمّا ورد في كتاب **مؤتمر النساء**[2] الذي نشر نبذة عنها في ذيل كلمتها، فذكر أن ولادتها كانت في عام 1871. ويقول الجندي أيضًا، وهو صاحب أوسع ترجمة لسيرتها بالعربية، إنها «نشأت في بيت علم وأدب، وظهرت عليها علائم النجابة، وبرهنت في طفولتها على استعداد يرجى منه خيرًا [خيرٌ]»[3]. ثم يضيف أن هَنا كوراني «تلقت مبادئ القراءة في مدرسة حكومية، ثم دخلت مدرسة المرسلين الأميركان في كفرشيما،

(1) أدهم آل جندي، **أعلام الأدب والفن**، ج 2 (دمشق: مطبعة الاتحاد، 1958)، ص 530.

(2) *The Congress of Women Held in the Woman's Building: World's Columbian Exposition, Chicago, U.S.A., 1893*, ed. by Mary Kavanaugh Oldham Eagle (Chicago; Philadelphia: Monarch Book Company, 1894), p. 359.

(3) آل جندي.

ثم مدرسة البنات الأميركية الكبرى في بيروت، وظلت أربع سنوات درست خلالها قواعد اللغتين العربية والإنجليزية وشتى العلوم.. ومن الذين تلقت عنهم العلوم العلامة الشيخ إبراهيم الحوراني (1844-1916)»[4].

أمّا هَنا كوراني، فذكرت لمجلة *Harper's Bazaar* **(هاربرز بازار)** النسائية الأميركية الواسعة الانتشار، أن معلمتها الأولى كانت والدتها، وأنها عاشت طفولتها وهي تتمتع بحرية مطلقة، وأنها كانت مغرمة بالخيول، وأصبحت فارسة في سن مبكرة، وأنها انضمت إلى أشقائها في جميع الرياضات خارج المنزل، وأنه كان في إمكانها أن تقرأ باللغة العربية في سن السادسة، وهي السنة التي بدأت فيها تعلُّم الإنكليزية، وأنها عندما بلغت العاشرة من عمرها انضمت إلى المدرسة الأميركية للبنات في بيروت، وهي مدرسة أنشأها المبعوثون الإنجيليون. وقالت إنها كانت دائمًا طالبة متميزة والأولى في صفوفها الدراسية، وأنها بعد خمس سنوات من الدراسة، تخرجت، وكان معلموها يتنبأون لها بمستقبل باهر[5].

يقول الجندي: «لما فازت بالشهادة النهائية، دعيَت للتعليم في مدرسة البنات الأميركية في طرابلس، فبقيت مدة سنة ثم عادت إلى كفرشيما، فاقترنت بالمرحوم أمين كوراني، وأقامت في الشويفات وبيروت تراسل الجرائد والمجلات بمقالاتها الرائعة، وتترجم روايات، وتؤلف رسائل، وتعلم في مدرسة الأحد، وتخطب في الأندية»[6].

وتقول هي للمجلة الأميركية المشار إليها إنها تزوجت في سن السادسة عشرة بأمين كوراني، وهو الآخر من عائلة تحولت إلى العقيدة الإنجيلية، وبعد

---

(4) إبراهيم بن يحيى الحوراني، كاتب وشاعر ومترجم من مدينة حلب. اشتهر بمؤلفاته في نقد التطور والرد على الداروينية من منظور ديني مسيحي. يُنظر جورج طرابيشي، **معجم الفلاسفة: الفلاسفة، المناطقة، المتكلمون، اللاهوتيون، المتصوفون**، ط 3 (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2006)، ص 275؛ آل جندي.

(5) *Harper's Bazaar*, vol. xxvii, no. 17 (28 April 1894), p. 339.

(6) آل جندي.

زواجها تابعت دراستها باللغة الإنكليزية، وأتقنت الفرنسية إلى جانب تمكنها من العربية. وفي عام 1891 بدأت نشاطها الكتابي، فنشرت كتابًا تمحور حول الأخلاق والعادات، كما قالت للمجلة الأميركية، فنال استحسان الجمهور ونخبة القوم[7].

يذكر الجندي أنها ألّفت «رسالة في الأخلاق والعادات»، وطبعتها، وكافأها السلطان عبد الحميد الثاني بمنحها وسام الشفقة (Şefkat)، وترجمت روايات مطبوعة، منها **فارس وحماره** و**زقاق المقلاة** و**الحطاب وكلبه بارود**، وهي روايات قصيرة[8]. ونحن لم نعثر على أساس لقصة منحها وسام الشفقة في مصدر آخر غير الجندي، بل إن الأرشيف العثماني خلا من هذا الخبر، فلو كان صحيحًا لوثّقته محفوظات يلدز الأساسية التي كانت تدوّن اسم كل شخص حصل على وسام من السلطان عبد الحميد.

يذكر عمر رضا كحالة في كتابه **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام** أسماء كتب أخرى مثل **إنهاض الغيرة الوطنية**، و**التمدن الحديث وتأثيره في الشرق**، وهي في الحقيقة ليست كتبًا بل محاضرات مطبوعة (يُراجع ملاحق الكتاب). كما أنه يشير إلى حرق دفاترها وبعض مؤلفاتها المخطوطة وصورها ومتعلقاتها، خشية أن ينتقل إلى الآخرين مرض السل الذي أُصيبت به في الولايات المتحدة[9].

ويكتب الجندي، نقلًا عن الكاتب الصحافي جرجي نقولا باز (1881 1959)، الذي كان يعرفها عن كثب، أنها «كانت لطيفة الأسلوب، ذات صوت رنان، قوية اللهجة، سلسة العبارة، جريئة مقدامة، واسعة الصدر، جدية الفكر، ذكية الفؤاد، نقية غيورة، طويلة القامة، ممتلئة الجسم، كبيرة العينين، جميلة، لطيفة، وكانت مع انهماكها بالكتابة والخطابة والمطالعة تتعاطى الأشغال

---

(7) *Harper's Bazaar.*

(8) آل جندي.

(9) عمر رضا كحالة، **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام**، ج 5 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1984)، ص 214.

اليدوية، وتتقن الأعمال المنزلية، إلا أنها لم تكن سعيدة في حياتها الزوجية، ولم تُرزق أولادًا، ولم يتسن لها بلوغ ما قدّرته لنفسها من السعادة..»[10].

بمعزل عن الإطناب في لغة الجندي ومصدره جرجي باز بشأن صفاتها الشخصية والأسلوبية، فإن النصوص العربية التي قرأناها لها تشي بأنها كانت واسعة الثقافة، ولغتها متخففة من التكلف والسجع والطباق والجناس التي كانت تقيّد كتّاب القرن التاسع عشر وما قبله[11].

من الملاحظ أنها استفادت من ثقافتها الإنكليزية جيدًا في كتابة نصوصها العربية؛ إذ إنها كانت تعبّر عن أي فكرة بشكل واضح ومباشر وسهل، وكانت تنطلق من مقدمات منطقية، تناقشها بشكل هادئ يتضمن عرض احتمالات كثيرة للفكرة الواحدة، قبل أن تصل إلى النتيجة المنطقية المقبولة بناء على المقدمة، وهو أسلوب متبع لدى المبشرين الإنجيليين حتى وقتنا هذا، ولا شك في أنها اكتسبته من أساتذتها في مدارس الإرساليات التي ارتادتها.

أمّا تعبيرها بالإنكليزية، فلم يكن يضارع تمكّنها من العربية التي كانت لغتها الأثيرة، كما قالت في رسالة لصديقة أميركية، وتمنت لو أن تلك الصديقة تعرف العربية لكي تعبّر لها عما يعتمل في وجدانها بشكل أجمل. ولاحظ أكثر من صحافي أميركي هذا الأمر؛ إذ كان بعضهم يشير إلى لكنتها الواضحة في لفظ الكلمات الإنكليزية وبساطة تعابيرها في الجدل والارتجال، أو ركاكتها بحسب صحافيين آخرين، كما سيرد معنا. ولكن على العموم، كان هناك تقدير عالٍ لأسلوبها في الخطابة والجدل والإقناع من أغلبية الصحف الأميركية التي كتبت عنها وواكبت محاضراتها.

---

(10) آل جندي.

(11) يقول فواز طرابلسي إن تحرير اللغة العربية من الركود والتقليد كان الشاغل المشترك لرواد النهضة، ويضيف أنهم نجحوا في النثر نجاحًا باهرًا، وإن لم يصيبوا نجاحًا كبيرًا في الشعر. ويرى طرابلسي أن ترجمة الكتاب المقدس خصوصًا والترجمة عمومًا ساهمت في تجديد النثر العربي. يُنظر: فواز طرابلسي، **تاريخ لبنان الحديث من الإمارة إلى اتفاق الطائف** (بيروت: دار الريس، 2008)، ص 111.

ممّا لا شك فيه أن الدعوات التي وجهتها رئيسة المؤتمر النسائي بيرثا هونوريه بالمر (1849-1918)[12] إلى هَنا كوراني وغيرها من الناشطات والأديبات السوريات للحضور إلى شيكاغو، وأخبار نشاط حركة حق التصويت والانتخاب للمرأة في الولايات المتحدة وأوروبا، ساهمت في تحفيز مثقفي ذلك العصر ومثقفاته على إعادة النقاش العام بشأن المرأة وحقوقها ودورها في المجتمع، وهو ما كان قد أطلقه في أربعينيات القرن التاسع عشر وخمسينياته بطرس البستاني (1819-1883)[13] وأحمد فارس الشدياق (1805-1887)[14] بشكل رئيس.

كانت وجهة نظر البستاني، التي عبّر عنها في خطاب شهير في عام 1849 وأعيد نشره أكثر من مرة[15]، تنطلق من حق المرأة في التعلّم، ولكن ضمن تصوراته لامرأة شرقية مثالية، متعلمة محصورة في بيتها، يكاد دورها يقتصر على تعليم أولادها، في حين ذهب الشدياق أبعد كثيرًا من مجايليه النهضويين

---

(12) ولدت بيرثا ماتيلد هونوريه في لويزفيل بولاية كنتاكي الأميركية، وكان والدها هنري هاملتون هونوريه رجل أعمال ناجحًا. درست في مسقط رأسها وحصلت على سمعة كموسيقية ماهرة، وكاتبة، ولغوية، وسياسية متمكنة، ومديرة متميزة. كانت عضوًا مؤسسًا في نادي شيكاغو للمرأة، وهو جزء من الاتحاد العام للأندية النسائية، قبل أن تكلَّف برئاسة مؤتمر المرأة العالمي في شيكاغو في عام 1893. ينظر: Ishbel Ross, *Silhouette in Diamonds the Life of Mrs. Potter Palmer* (New York: Harper & Brothers 1960), pp. 28-31.

(13) بطرس البستاني، أديب ومؤرخ ومصلح من جبل لبنان. يلقَّب بالمعلم، ويُعَدّ أعظم أركان النهضة العربية. ألّف أول موسوعة باللغة العربية في العصر الحديث، هي **دائرة معارف البستاني**. كما ألّف معجم **محيط المحيط**، أول قاموس عصري في اللغة العربية. اشترك مع كورنليوس فان ديك في ترجمة العهد القديم إلى العربية، وأنشأ المدرسة الوطنية في بيروت في عام 1863. للتوسع في ترجمته، يُنظر: جرجي زيدان، **تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر**، ج 2 (بيروت: دار مكتبة الحياة، 2005)، ص 35-44.

(14) أحمد فارس الشدياق، صحافي ورحالة ولغوي وأديب من جبل لبنان، أصدر صحيفة **الجوائب** في اسطنبول. يُعَدّ من ألمع شخصيات عصر النهضة. للتوسع في ترجمته، يُنظر: زيدان، ص 101-114.

(15) نشر هذا الخطاب ملخصًا في مجلة **الجنان**، ج 7، 1882، ص 207-214؛ وأعاد نشره جان داية، **المعلم بطرس البستاني: دراسة ووثائق** ([د. م.]: منشورات مجلة فكر، 1981)، ص 63-80.

إلى المساواة الكاملة بين الرجال والنساء، فدافع عن حق المرأة في العمل وفي اختيار زوجها، ودعم حقها المتساوي في الطلاق[16].

احتفت مجلة **الجنان** بمقالة لمريانا مَرَّاش الحلبية (1848-1919)[17]، رددت فيه بشكل أو بآخر الأفكار التي طرحها المعلم بطرس البستاني، قبل نحو عقدين من الزمن، فأعطت المجلة للمقالة عنوان «شامة الجنان» تعبيرًا عن ذلك الاحتفاء؛ إذ كانت هذه المقالة هي المساهمة الصحافية النسائية الأولى التي تتطرق إلى موضوع المرأة وحقوقها وواجباتها ودورها في المجتمع. وعثرت مرَّاش، في مقالتها، على المدخل للتعبير عن أفكارها في قصيدة للشاعر أبي الطيب المتنبي (915-965)، غمز فيها من قناة المرأة، متهمًا إياها بالبخل والجبن[18]، فقارنت الرجال بالنساء، وصححت مفهوم البخل إلى الحرص، والجبن إلى الشجاعة الأدبية، وبيّنت فضائل هاتين الخصلتين اللتين تميزان المرأة، شارحة معنى الشجاعة الأدبية بأنها «الصبر على الحوادث واحتمال الأكدار والكوارث»، لا «الجسارة والاقتحام نظير الرجال»، «لأنه وقتئذ كان دأب الرجال الغزو والضرب والنهب وأخذ الثأر. وأمّا النساء فكنَّ محجوبات في خدورهن».

أمّا في ما يتعلق بفهمها للحرص فقالت إنه واجب على النساء، «لأنهن أخذن في درس العلوم والصنائع كالرجال، وعدن يصلحن للأعمال العقلية والتجارية التي تطلب الحرص وترفض البخل»، لافتة إلى أن دراسة العلوم والصنائع «لم تدرج في بلادنا بعد» بينما في «أوروبا التي نقتدي بها الآن، فذلك أمر عمومي على جميع النساء».

---

(16) يُنظر: أحمد فارس الشدياق، **الساق على الساق في ما هو الفارياق** (باريس: [د. ن]، 1855)، ص 547-550؛ وطرابلسي، ص 115.

(17) مريانا هي بنت فتح الله بن نصر الله مَرَّاش، توفيت في مدينة حلب، وكانت أول امرأة تكتب مقالة في الصحافة العربية. نشرت مجموعتها الشعرية في عام 1893، وأسست صالونها الأدبي في مدينتها حلب. ينظر: قسطاكي الحمصي، **أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر** (حلب: المطبعة المارونية، 1925)، ص 42-44؛ فيليب دي طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، ج 2 (بيروت: المطبعة الأدبية، 1913)، ص 241-243.

(18) افتتحت مريانا مقالتها ببيتي المتنبي اللذين يقول في أحدهما:

سَلامٌ فَلَولا الخَوفُ وَالبُخلُ عِندَهُ   لَقُلتُ أَبـو حَفصٍ عَلَينا المُسَلِّمُ

شددت مَرَّاش على أن نساء أوروبا «لم يحصلن على المراتب المذكورة بالفعل إلا بمساعدة الظروف هناك وشيوع التمدن»، وقالت: «فلنحوَ ذلك نحن بالقوة، حتى إذا ما اضطرنا الحال وساعدتنا الظروف؛ نكون أكفاء أن نقوم بذواتنا»، داعية بنات جنسها إلى المساهمة في الآداب والمعارف، وعدم الإصغاء «لما اقترف به علينا بعض المغرضين بنفيهم عنا صلاحيتها»[19].

بعد عام واحد من ذلك، نشرت وستِن مسرَّة[20] في مجلة **الجنان** أيضًا مقالة بعنوان «التربية»، أيدت فيها دعوة الآنسة مَرَّاش إلى طرد «الخوف والوجل»، داعية بنات جنسها إلى أن يرمحن «في ميادين الأدب بالقول والعمل»، متسائلةً: «فما لنا لا نخلع عنا أثواب التواني والكسل، ونلبس أثواب النشاط ونقْدم على العمل، ونحن من بنات القرن التاسع عشر الذي فاق بالتمدن كل قرون البشر. كيف لا نبين للرجال لزوم دخول النساء إلى جنات العلوم الأدبية؟»[21].

بعد ثلاثة أعوام نشرت فريدة شكور[22] في المجلة عينها أيضًا مقالة بعنوان «في النساء» أعادت فيها صوغ أفكار مَرَّاش، لتعالج موضوعها عن تربية البنات من أجل إعداد الأسرة المتمدنة مستقبلًا[23]. وبعد عام، نشرت مقالة أخرى في **الجنان** بعنوان «التقدم الحقيقي» تحدثت فيها عن تعليم البنات، وذلك لمناسبة افتتاح مدرسة السيوفية للبنات في القاهرة[24].

---

(19) **الجنان**، السنة 1، مج، 2، ج 15 (1870)، ص467-468.

(20) المعلومات عن وستين مسرّة شحيحة، وباستثناء أنها زوجة الصحافي سليم أفندي حموي، مؤسس جريدة **الكوكب الشرقي** في الإسكندرية في عام 1873، لا نكاد نعثر على معلومات عنها.

(21) **الجنان**، السنة 2، مج 1، ج 2 (1871)، ص 54-56.

(22) ليس ثمة معلومات عن فريدة شكور سوى تلك التي ذكرها توفيق حبيب في كتابه **الفجالة قديمًا وحديثًا**، حيث قال إنها كانت معلمة ثم مديرة لمدرسة البنات ألاميركية في القاهرة، وزوجها الخواجا منصور شكور، وأنها كانت لبيبة ذكية، فلم تكن تقتصر على التدريس، بل كانت تقصد إنكلترا أيضًا فتلقي الخطب، داعية القوم إلى دعم المدرسة، وفي الوقت ذاته كان زوجها يساعد رجال الإرسالية الإنغليكانية في الوعظ والتبشر في أنحاء القطر المصري، وعلى الأخص في الوجه القبلي. ينظر: توفيق حبيب، **الفجالة قديمًا وحديثًا** (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012)، ص 54.

(23) **الجنان**، السنة 5، مج 1، ج 8 (1874)، ص 271-272.

(24) **الجنان**، السنة 6، مج 1، ج 11 (1875)، ص 374-376.

يمكن القول إن أفكار مَرَّاش وجدت صدى يفوق التوقعات لدى مثقفات عصرها؛ فما كتبته السيدتان مسرَّة وشكُّور لا يعدو كونه استطرادًا على دعوة مَرَّاش إلى تحلي النساء بالشجاعة الأدبية، والمساهمة بالقول والعمل في مجالَي الآداب والمعارف، والمشاركة بكتاباتهن في الصحافة، مع إضافة فكرة تنسجم مع سياق دعوة مَرَّاش، وهي: ضرورة اتخاذ النساء أفضل الأساليب في تربية أبنائهن، والاهتمام بتعليم البنات[25].

ما إن أطل العقد الثامن من القرن التاسع عشر حتى نشرت مجلة **المقتطف** القاهرية خبرًا عن تأسيس جمعية علمية أدبية للنساء في بيروت اسمها «باكورة سورية»، وكتبت عن الجمعية قائلة: «يجتمع فيها أعضاؤها من النساء المهذبات مرة كل أسبوعين، ويروضن عقولهن بالخطب والمباحثات العلمية والأدبية، والنظر في ما من شأنه تحسين الهيئة الاجتماعية بين النساء في سورية»[26]. ودعت المجلة «كل سيدة مهذبة» إلى الاشتراك في هذا المسعى الحميد، لأن «سورية لا تستقر قدمها على ركن التقدم والنجاح حتى تقاسم المرأة الرجل أشغاله، علمًا وأدبًا، ويسعيان بيد واحدة نحو إصلاح المعيشة العائلية وتحسين الهيئة الاجتماعية»[27]، بحسب تعبير المجلة.

أصدرت الجمعية بعد بضعة أشهر من تأسيسها كُتيبًا من 32 صفحة أسمته «دستور جمعية باكورة سورية وخطب بعض أعضائها»، أشرف على

---

(25) يرى سيد علي إسماعيل في مقالة له عن ريادة مريانا مَرَّاش أن «هذه الدعوات في العقد السابع من القرن التاسع عشر، كانت بمثابة أحلام خطتها المرأة على الورق، ولكن هذا الورق طُبع، وأصبح متداولًا بين القراء في شكل مجلة سيارة، يطّلع عليها المثقفون والأدباء». ينظر: سيد علي إسماعيل، «مريانا مراش.. ريادة تاريخية أم فكرية»، مجلة **تراث** (أبو ظبي)، العدد 144-145 (تشرين الأول/ أكتوبر - تشرين الثاني/ نوفمبر 2011)، ص 116-119.

(26) إن مصطلح سورية في الأدبيات والكتابات والصحافة الصادرة في بلاد الشام قبل الانتدابين الفرنسي والبريطاني، يشمل جميع مناطق بلاد الشام، من حلب إلى رفح، بمعزل عن التقسيمات الإدارية المتغيرة بين حقبة وأخرى، وهذا ما نلمسه من تعريف هَنا كوراني لنفسها بأنها أديبة وصحافية سورية، أو من صفتها التي قُدمت بها في مؤتمر شيكاغو النسائي، أو في الصحافة العربية والأميركية وغيرها، كممثلة لنساء سوريا.

(27) **المقتطف**، السنة 4، ج 9 (شباط/ فبراير 1880)، ص 32.

إصداره إبراهيم الحوراني (لا نعرف صلته بالجمعية)، ويضم القوانين الأساسية للجمعية، والقوانين الفرعية، وست خطب لأعضائها، من دون ذكر أسماء صاحبات الخطب.

جاء في مقدمة الدستور أن «غاية هذه الجمعية ترقية حال نساء سورية الأدبية، وتهذيب أخلاقهن»، مشيرة إلى أن الجمعية «تقبل في عضويتها من رُمن الانتظام فيها مع قطع النظر عن دينهن»، وأن أعمالها تجري بحسب قوانين مقسومة إلى قسمين، «أساسي لا تغيره علة على الإطلاق، وقسم فرعي يغيَّر بحسب مقتضيات الأحوال بإجماع أعضاء الجمعية»[28].

أمّا القوانين الأساسية فتتضمن اسم الجمعية، وهو «باكورة سورية»، وواجبات المنتظِمات في سلك هذه الجمعية حيال المقاصد التي أنشئت لأجلها، وهي: «ترويج بضاعة الآداب بين النساء، والاعتدال في الأعمال، ومقاومة الإسراف وكل عادة مضرة علمًا وعملًا، سواء كانت قديمة أو حديثة، والمحافظة على السلوك الحسن». وبحسب القوانين الأساسية، فإن أعضاء الجمعية اللواتي يحق لهن إعطاء الصوت يجب أن يكنَّ من بنات سورية، ولا فرق بدينهن. وأن من تود الانتساب تتقدم بطلب خطي، وبعد قبولها تصادق على القوانين بإمضائها. وثمة فقرة في القوانين الأساسية تتعلق بمنع المجادلات الدينية، وبأن أي قرار يبرم في الجمعية لا بد أن يحظى بمصادقة ثلثي الأعضاء. أمّا القوانين الفرعية، فتتعلق بتفصيلات إدارية وتنظيمية بشأن هيكلة الجمعية ومهمات الأعضاء[29].

وجاء في الكتيب أن إبراهيم الحوراني لمّا وقف على خطب جمعية باكورة سورية وراقته لفظًا ومعنًى، اختار الخطب الست، «فطبعت قصدًا لتنشيط أعضائها، وترغيبًا لغيرهن ممن لم يشتركن فيها، ولفائدة المطالعات، وليكون ربح هذه المطبوعة لتلك الجمعية»[30]. وأتت عناوين الخطب كما يلي: «الغاية

---

(28) **دستور جمعية باكورة سورية وخطب بعض أعضائها** (بيروت، 1880)، ص 2.

(29) المرجع نفسه، ص 2-4.

(30) المرجع نفسه، ص 4.

التي خلق الإنسان لأجلها»؛ «تهذيب العقل»؛ «الكتب ومطالعتها»؛ «الارتقاء»؛ «حياة الإنسان وواجباته»؛ «حقوق النساء». وما يهمنا من هذه الخطب هي الخطبة السادسة، لأنها أوضحت تصورات الجمعية لحقوق المرأة، وهو موضوع كان يثير كثيرًا من الأسئلة والحوارات[31]. كما أنها ربطت انحطاط أحوال المرأة في سورية بحالة الانحطاط التي تعيشها البلاد. ثم شددت على المساواة العقلية بين الرجال والنساء، إذ قالت: «يحق لنا أن نتأسف عند تأملنا في حالة الجهل والغباوة التي يخبط فيها جنس النساء في هذه الديار، فإن الله لما خلق الإنسان ميزه عن الحيوان بإعطائه إياه نفسًا خالدة، وعقلًا يعرف به الخير والشر، ووهب ذلك لكل الجنس البشري، غير مميز فيه الرجال على النساء، بل ناط بالنساء قسمًا عظيمًا من مهام الأمور وتدبيرها»[32].

من المؤكد أن صاحبة الخطبة كانت تردُّ على أفكار معيّنة، تنتشر بين بعض مثقفي ذلك العصر مشكِّكة بقدرات النساء العقلية. وتستشهد الخطبة بأمثال تتردد على ألسنة تنفي أهلية النساء، كالمثل القائل: «المرأة ربت ثورًا فما حرث»، وتردّ على هذا المثل بجواب مفحم: «نعم إننا لا ننكر عدم مناسبة النساء لتربية الثيران، ولكن نرفض دعوى من يقول إنهن لسن أهلًا لتربية العقلاء، فإن الكثير من المشاهير والأتقياء ينسبون الفضل إلى تربية والداتهم»[33]. وتتساءل صاحبة الخطبة، غامزة من قناة بعض المثقفين الذين يأخذون بهذه الأفكار الرجعية، بالقول: «إلى متى يجهل بعض القوم حتى هذا العصر جميع هذه الحقائق، ولا يقتصرون على جهلهم بل يقاومونها بعزم شديد، ولا ينظرون إلى المرأة إلا بالازدراء والاحتقار، فإن كثيرين من الذين هم أكثر تنورًا لا يزالون مصرين على زعمهم بأن المرأة دونهم شرفًا وعقلًا وفهمًا». ولا تنسى أن تشير إلى أن هذه الآراء أخذت «تضعف رويدًا رويدًا مع باقي الخرافات القديمة» المأمول «أن تضمحل آثارها بامتداد شمس التمدن والعلوم»، بحسب نص الخطبة[34].

(31) المرجع نفسه، ص 4-29.
(32) المرجع نفسه، ص 30.
(33) المرجع نفسه، ص 31.
(34) المرجع نفسه.

ثم انطلقت صاحبة الخطبة لتعداد حقوق النساء كما تراها، وهي: حق استعمال العقل بالحرية التامة. ولكنها تعود لتوضح أن هذا لا يعني «أنهن يكن مستقلات في التصرف، وأن لا يقبلن عليهن سلطة أحد، لأن العقل السليم لا يضاد الحق، بل يدرب الانسان ويقوده إلى حسن التصرف والعمل». وتبين صاحبة الخطبة «أهمية التعليم للنساء وفوائده ولزوم تقوية العقل وإمداده بالعلوم المفيدة، وتوسيع دائرة المعارف»، لتجاوز «الخرافات القديمة»[35]. ثم يلي ذلك «حقُّ التمتع بكل الوسائط التي من شأنها أن تزيد الإنسان معرفة وعلمًا وتنورًا، كمطالعة الكتب المفيدة، وقراءة الجرائد العلمية والأدبية، وكذلك الانضمام إلى ما يختص بهن من الجمعيات التي غايتها عمل الخير وتقدم البلاد». وجاءت في الخطبة سخرية ممن قالوا بأن «النساء إن تعلمن صرن ساحرات»، مشيرة إلى أن «أكثر السحرة والمنجمين في الديار المصرية وغيرها [هُم] من الرجال لا من النساء، فإذن لا خوف من هذه العاقبة»[36].

ثم هناك «حق إبطال كل ما ساء من العوائد مهما كانت قديمة، ولا سيما تلك التي تمنع تقدم الهيئة الاجتماعية»، وتترك صاحبة الخطبة البحث «عن العوائد التي يجب إبطالها.. لمن به الكفاءة»[37]. وختمت الخطبة بدعوة نساء سورية إلى تشديد العزم، والثبات، معبِّرة عن الثقة التامة في أنهن سوف يحصلن «على المطلوب، ولماذا لا وقد منت علينا العناية بوسائط عديدة كالمدارس والجرائد، ولا سيما تأسيس هذه الجمعية التي نُؤَمِّل منها الإصلاح»[38].

يمكن القول إن تأسيس هذه الجمعية النسائية أتى نتيجة طبيعية لدعوات مريانا مَرَّاش ووستِن مسرَّة وفريدة شكُّور بأن يكون للمرأة السورية شأن بين الرجال. ولكن لا يمكن في الوقت نفسه عزل هذا التأسيس عن سياق النشاطين الثقافي والأهلي في سوريا العثمانية خلال ولاية مدحت باشا

(35) المرجع نفسه.

(36) المرجع نفسه.

(37) المرجع نفسه.

(38) المرجع نفسه، ص 32.

(1822–1884)[39]، وهما النشاطان اللذان شهدا طفرة غير مسبوقة في إنشاء المدارس العربية، وتأسيس الجمعيات الأدبية والفِرق المسرحية[40]، فكان لا بد أن تحظى المرأة بحيّز في هذه «الطفرة»، نظرًا إلى وصول أفكار الحداثة إلى النخبة النسائية المثقفة التي كانت تقرأ عن النشاط النسوي المطلبي في فرنسا وإنكلترا واسكندنافيا ذلك الوقت[41].

يبدو أن نشاط الجمعية وجد صدًى كبيرًا لدى السيدات المتعلمات في ولاية سورية، إذ رفعت إحداهن، وهي مريم سركيس، سقف المطالب في مقالة لها بعنوان «فوائد المطالعة والحث عليها» إلى تمنّي إصدار صحف خاصة بنساء سورية[42]. كما أن النقاش الذي كان يتلو المحاضرات، وما نتج منه من تعميق للمفاهيم حول حقوق المرأة ودورها في المجتمع، انعكسا في مقالات أكثر جرأة بطرح الأفكار، من مثل مقالة لمريم جرجي إليان في **المقتطف** بعنوان «حقوق النساء ووجوب تعليمهن» قالت فيه: «أقول ولا أخشى لومة لائم: إن للنساء حق ما للرجال من المساواة في الهيئة الاجتماعية، وإن وجود هذه المساواة في بلاد دليل تقدمها وارتقائها». ووجهت إليان نداءً للرجال بألسنة بنات جنسها قائلة: «لن تبلغوا معالي الفخر والكمال؛ إن لم تسرعوا لتعليم بناتكم العلوم والآداب»[43].

(39) أحمد شفيق مِدحت بَاشا، سياسي عثماني وإصلاحي ذو توجه موال للغرب. تولى مناصب كثيرة، منها الصدر الأعظم ووزير العدل، وخدم قبلها واليًا على ولاية بغداد. في أواخر عام 1878، عُيّن واليًا على سوريا، فأمضى فيها قرابة عامين حتى أواسط عام 1880، حين نُقل إلى ولاية أيدين، قبل اعتقاله وإيداعه سجن الطائف بتهمة قتل السلطان عبد العزيز في عام 1876. للتوسع في سيرة مدحت باشا، يُنظر: أحمد أمين، **فيض الخاطر**، ج 5 (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1944)، ص 239 وما بعدها.

(40) تيسير خلف، **نشأة المسرح في بلاد الشام: من هشاشة القانون إلى فتاوى التحريم، 1847–1917** (الشارقة: الهيئة العربية للمسرح، 2018)؛ تيسير خلف، **وقائع مسرح أبي خليل القباني في دمشق، 1872–1883** (ميلانو: دار المتوسط، 2019).

(41) كانت هذه الأخبار تُنشر في جريدتي **لسان الحال** و**الجنة**، على وجه الخصوص، خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر.

(42) **المقتطف**، السنة 6، ج 6 (تشرين الثاني/ نوفمبر 1881)، ص 364–365.

(43) **المقتطف**، السنة 8، ج 6 (آذار/ مارس 1884)، ص 358–360.

بعد عامين، أثنى وديع الخوري[44] على مريم جرجي إليان بمقالة مسهبة حملت أيضًا عنوان «حقوق النساء ووجوب تعليمهن»، مستشهدًا بأمثلة من نساء مشهورات في التاريخ، وذكر أنه شرع، بناء على النقاش الدائر حول هذا الموضوع، في تأليف كتاب عنونه بـ **المرأة وحقوقها الواجبة وأثرها المشكور**[45]. ويبدو أن مقالته تلك أثارت كثيرًا من الجدل في أوساط مثقفي ذلك العصر؛ إذ أفردت مجلة **المقتطف** المجال لكثير من الرسائل والردود لبحث قضية «حقوق المرأة»، فتحول الأمر إلى مناظرة مع وديع الخوري، طوال عامي 1886 و1887.

وفي عام 1887، ألقى شبلي شميّل (1850-1917)[46] محاضرة أمام جمعية الاعتدال في القاهرة بعنوان: «المرأة والرجل وهل يتساويان؟»، ناقش فيها الأفكار المطروحة على صفحات مجلة **المقتطف**، وقدّم أطروحة متأثرة بالكشوفات العلمية في زمنه، معتمِدًا النظرية الداروينية التطورية، فناقش بإسهاب الفروق الجسمانية والفيزيولوجية بين الذكور والإناث حتى في مملكة الحيوان، محاولًا أن يجد حلًا وسطًا بين الأفكار التي تمجد المرأة وتجعلها في مصاف الملائكة، بحسب تعبيره، وبين الآراء التي تنزلها إلى حضيض البهيمية[47].

---

(44) سبق لوديع الخوري أن نشر مقالة مسهبة في مجلة **المقتطف** في عام 1882 بعنوان «حقوق المرأة» رد فيها على مقالة منشورة في العدد 107 من جريدة **التقدم**، يشكك فيها صاحبها، ويسخر من المطالبة بحقوق المرأة. يُنظر: **المقتطف**، السنة 4، ج 1 (حزيران/ يونيو 1882)، ص 17-23.

(45) **المقتطف**، السنة 10، ج 9 (حزيران/ يونيو 1886)، ص 557-559. يبدو أن هذا الكتاب لم ير النور، لأننا لم نعثر له على أثر في المكتبات أو معاجم المطبوعات العربية الكثيرة.

(46) ولد شبلي شميّل في كفرشيما في جبل لبنان، ويُعَدّ من طلائع النهضة العربية. تخرج في الكلية السورية/ الجامعة الأميركية في بيروت، ثم توجّه إلى باريس لدراسة الطب، ثم استقر في مصر، فأقام في الإسكندرية وطنطا، ثم القاهرة. أصدر مجلة **الشفاء** في عام 1886، وكان أول من أدخل نظريات داروين إلى العالم العربي من خلال كتاباته في **المقتطف**، ثم مؤلفه **فلسفة النشوء والارتقاء**. كما أصدر هو وسلامة موسى صحيفة أسبوعية اسمها **المستقبل** في عام 1914 لكنها أُغلقت بعد إصدارها 16 عددًا. دافع عن العلمانية كنظام سياسي؛ إذ كان يرى أن الوحدة الاجتماعية ضرورة أساسية لتحقيق إرادة شعبية عامة، تستلزم الفصل بين الدين والحياة السياسية على اعتبار أن الدين كان عامل فرقة. ينظر: طرابيشي، صفحة 402-403؛ وللتوسع في سيرة شميل، ينظر: جورج نخل، **سلسلة أعلام من لبنان** (طرابلس: دار الشمال، 2011).

(47) **المقتطف**، السنة 11، ج 6 (آذار/ مارس 1887)، ص 355-360.

خلص شميّل إلى أطروحة مكثفة بخصوص المرأة وحقوقها، وتصوراته لدورها في المجتمع، فأكد ضرورة وضعها «في مقامها الحقيقي الذي يليق بها، والمكان الذي وضعت فيه عضوًا لازمًا للهيئة الاجتماعية تابعة للرجل في ارتقائه، مساعدة له متممة ما نقص من كماله، مخففة عنه مشاق الحياة الداخلية، كما هو يذلل لها مصاعب الحياة الخارجية، حاضنة أولادها تحت جناحي حنوها وتدبيرها عن طبع وتهذيب، أمّا هو فيسهر على راحتهم بعين سعيه وإقدامه عن سليقة ومعرفة، لا تنازعه ما لا تجد بها المنازعة فيه نفعًا، ولا يبخسها هو حقًا اعترف لها به مقامها في الهيئة الاجتماعية، متقاسمين الأعمال كل منهما في دائرته، غير متطاول إلى دائرة سواه، وبذلك يتم نظام العائلة البشرية التي هي أم الاجتماع الإنساني»[48].

كانت أفكار شمّل أشبه ببرنامج عمل كان له أثر عميق في نساء عصره، خصوصًا اللواتي تلقين علمهن في المدارس الإنجيلية، حيث سنرى أن ناشطات كثيرات سوف يعتمدنه بنصه تقريبًا، ويدافعن عنه في المقالات والمنتديات، خصوصًا بعد وصول دعوة بيرثا هونوريه بالمر[49]، رئيسة المؤتمر النسائي العالمي، ستَّ ناشطات وكاتبات سوريات في أواسط عام 1892

(48) **المقتطف**، السنة 11، ج 7 (نيسان/ أبريل 1887)، ص 401-405.

(49) كان لترؤس السيدة بيرثا بالمر للمؤتمر النسائي العالمي انعكاس إيجابي على الحركة النسائية في العالم أجمع، ومنها الحركة النسائية في سورية ومصر؛ إذ أخرجت العمل النسائي في الولايات المتحدة من طابعه المحافظ الذي أسبغته عليه سيدات أرستقراطية الشرق الأميركي، ومنحته أفقًا تقدميًا منفتحًا. وكان لانتماء السيدة هونوريه بالمر إلى البرجوازية الصاعدة في شيكاغو دور كبير في توحيد الحركة النسائية العالمية، حيث سعت منذ ولادة فكرة المؤتمر لأوسع مشاركة ممكنة، ولذلك حضت حكومات الدول التي راسلتها على تشكيل لجان للمرأة برئاسة عقيلات أو أمهات أو بنات الملوك والزعماء، وتلبية الدعوة لحضور المؤتمر في شيكاغو. وقد سمَّت بالمر الحكومات التي استجابت للمراسلات وشكلت لجانًا رسمية ودعمتها بالمال اللازم، وهي حكومات إنكلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا والنمسا وروسيا وبلجيكا وهولندا والسويد والنرويج واليونان وسيام واليابان والجزائر ومستعمرة الكاب وكوبا والمكسيك ونيكاراغوا وجمهورية الأرجنتين وجامايكا وسيلان والبرازيل وكولومبيا والإكوادور وفنزويلا وبنما وجزر ساندويتش. ينظر: Maud Howe Elliott (ed.), *Art and Handicraft in the Woman's Building of the World's Columbian Exposition Chicago 1893* (Paris; New York: Goupil & Co., Boussod, Valadon & Co., Successors, 1893), p. 15.

إلى المشاركة في المؤتمر المزمع عقده على هامش المعرض العالمي الكولومبي في شيكاغو 1893، هنّ هَنا كوراني وأستير أزهري (1873-1948)[50] ومريم خالد[51] وسلمى عرمان[52] وأنيسة صيبعة (1865-1944)[53]، حيث أعادت هذه الدعوة النقاش العام بشأن المرأة وحقوقها بعد أن توقف خمس سنوات تقريبًا، بسبب احتكار الرجال له، ووصوله إلى طريق مسدود، كما أنها ساهمت في تسريع إصدار أول مجلة نسائية عربية هي مجلة **الفتاة**، التي رأست تحريرها الكاتبة هند نوفل (1860-1920)[54].

في هذا الجو النهضوي الحيوي، ظهرت هَنا كوراني كاتبة عن الأخلاق والعادات، ومترجمة عن الإنكليزية مجموعة من قصص الأطفال، وكاتبة صحافية تدعو إلى تعليم المرأة وتثقيفها.

---

(50) ولدت أستير أزهري مويال في بيروت لعائلة يهودية. كانت من ناشطات جمعية باكورة سوريا في بيروت. بعد زواجها رحلت الى القاهرة وأسست المجلة النسائية الخامسة في مصر باسم **العائلة** في عام 1899، وذلك بعد ظهور كل من مجلة **الفتاة** (هند نوفل، 1892) و**الفردوس** 1896، لمؤسستها لويزا هابلين، وهي سورية أيضًا، و**مرآة الحسناء** (سليم سركيس، 1896) و**أنيس الجليس** التي أسستها ألكسندرا أفرينو في عام 1898؛ يُنظر: بث بارون، **النهضة النسائية في مصر: الثقافة والمجتمع والصحافة**، ترجمة لميس النقاش (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1999)، ص 26.

(51) لا معلومات عن مريم خالد سوى أنها شاعرة من دير القمر في الشوف، نشرت لها مجلة **الفتاة** قصائد عدة.

(52) لا معلومات عن سلمى عرمان سوى أنها صاحبة كتاب بعنوان **نباهة الحيوان** صادر في بيروت في عام 1890.

(53) ولدت أنيسة بنت نقولا صيبعة في طرابلس الشام، درست الطب في مدرسة لندن النسائية ثم في جامعة إيدينبرغ في إنكلترا. استقرت في مصر، فتولت أعمالًا في الصحة. لها **قصة كورين** ترجمتها عن الإنكليزية؛ يُنظر: هيكل نعمة الله وإلياس مليحة، **موسوعة علماء الطب مع اعتناء خاص بالأطباء العرب حياتهم وآثارهم** (بيروت: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، 1991)، ص 98.

(54) هند نوفل، صحافية من طرابلس الشام، هاجرت عائلتها إلى الإسكندرية، وكانت أول امرأة في العالم العربي تنشر مجلة متخصصة بقضايا المرأة فحسب، هي مجلة **الفتاة**. يُنظر: كحالة، ص 265-266؛ مجلة **الفتاة**، السنة 1، ج 1 (20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1892).

الفصل الأول

مؤتمر شيكاغو النسائي

أولًا: مشكلة تمثيل المرأة السورية

حين وصلت دعوة بيرثا بالمر إلى هَنا كوراني، كانت الأخيرة قد دخلت في معركة صحافية مع مواطنتها المقيمة في القاهرة زينب فواز (1846-1914)[1]؛ إذ نشرت في جريدة **لبنان** مقالة بعنوان «المرأة والسياسة» أكدت فيها أن «المرأة لا تقدر على عمل خارجي مع أداء واجبات ما يلزم لخدمة الزوج والأولاد»، وأن «الواجبات المنزلية طبيعة للنساء، ولا يجوز لهن أن يتخطينها، لأنها سنّة قد سنَّها الله لهن، ولو تجاوزنها لتغير نظام الكون، وتبدلت نواميس الطبيعة»، بحسب تعبيرها. ولم تكتفِ بذلك، بل شنت هجومًا على نساء إنكلترا بسبب مطالبتهن دخول معترك السياسة[2]. فما كان من زينب فواز إلا أن ردت عليها في جريدة **النيل** القاهرية مؤكدة: «أن الرجل

---

(1) ولدت زينب بنت علي فوّاز، في بلدة تبنين في جنوب لبنان. كان والدها فقيرًا، فخدمت فاطمةَ بنت أسعد الخليل، زوجة حاكم البلدة علي بك الأسعد، وكانت صاحبة فضل عليها، إذ علّمتها القراءة والكتابة. تزوجت زينب مرتين، ورحلت إلى الإسكندرية بعد طلاقها الأول، حيث درست الصرف والبيان والعروض على حسن حسني الطويراني، صاحب جريدة **النيل**، كما درست على الشيخ محيي الدين النبهاني النحو والإنشاء، ثم ارتحلت إلى القاهرة. عاشت في دمشق ثلاث سنوات مع زوجها أديب نظمي الدمشقي، عادت بعدها إلى مصر. ذاعت شهرتها، فكتبت في جرائد عدة، منها **النيل** و**لسان الحال** و**المؤيد** و**اللواء** و**الأهالي** و**الاتحاد المصري** و**الفتاة** و**أنيس الجليس**. وتعددت أعمالها، فمنها الروائية مثل **حسن العواقب أو غادة الزاهرة** و**كورش ملك فارس**، والمسرحية مثل **الهوى والوفاء**، والسيرة مثل **الدر المنثور في طبقات ربات الخدور**، ومجموعة مقالات بعنوان «الرسائل الزينبية»، وقصائد عدة. غادرت الأديبة عالمنا في عام 1914، بحسب كتاب: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج 3، ص 67، أو في عام 1909، بحسب كتاب أدهم آل جندي، **أعلام الأدب والفن**، ج 2 (دمشق: مطبعة الاتحاد، 1958)، ص 528.

(2) لم نتمكن من العثور على صورة المقالة في جريدة **لبنان** فاعتمدنا الملخص الذي نشرته زينب فواز في جريدة **النيل** وردّت عليه. ينظر: جريدة **النيل** (العدد 151)، 14/7/1892 - 18 ذي الحجة 1309هـ.

والمرأة متساويان بالمنزلة العقلية، وعضوان في جسم الهيئة الاجتماعية، لا غنى لأحدهما عن الآخر، فما المانع إذن من اشتراك المرأة في أعمال الرجال، وتعاطيها الأشغال في الدوائر السياسية وغيرها، متى كانت جديرة تؤدي ما ندبت إليه، وإلا ما فائدة تعلُّم المرأة الغربية جميع العلوم التي تعلمها الرجال من فلسفة وحكمة ورياضة وهندسة». وتابعت متسائلة عن فائدة أن تدرس المرأة الغربية «القوانين السياسية، إذا كانت لم تعمل بمقتضاها، وتخدم النوع البشري، وتعد من أعضاء الهيئة الرئيسية؟»[3].

خلصت زينب فواز إلى أنه ينبغي للمرأة أن تشارك الرجل في جميع الأعمال، حتى السياسية منها؛ فهي «لم تُخلَق لكي تبقى في دائرتها المنزلية، وأن لا تتداخل فيما يختص بالأعمال الخارجية سوى ما يلزم من تدبير المنزل وتربية الأولاد والطبخ والعجن، وما شابه ذلك، كما تعتقد حضرة الفاضلة هَنا كوراني»[4].

كان جوهر الخلاف بين هَنا كوراني وزينب فواز يتركز حول دور المرأة في المجتمع، وطبيعة علاقتها بالرجل، هل هي مساواة أم تكامل؛ إذ كانت أفكار هَنا كوراني تدور في فلك الأفكار الإصلاحية الرائجة آنذاك في الأوساط المتعلمة. ويمكن ملاحظة تطابق أفكار هَنا كوراني في هذه المرحلة مع أفكار المعلم بطرس البستاني الداعية إلى الاكتفاء بتعليم المرأة وتأهيلها لمهمة بناء الأسرة فحسب، فيما كانت زينب فواز تدعو، على طريقة أحمد فارس الشدياق، إلى مساواة كاملة بين الرجل والمرأة، بما فيها حق العمل خارج المنزل، ولو أنها تجاوزت الشدياق للمطالبة بحق ممارسة السياسة ترشحًا وانتخابًا، مستندة في طروحاتها الراديكالية إلى ثقافتها التاريخية الممتازة التي أنتجت كتابًا موسوعيًا في تراجم النساء عبر التاريخ بعنوان **الدر المنثور في طبقات ربات الخدور**، إضافة إلى اعتمادها منهجًا نقديًا من داخل النص الإسلامي للمفاهيم الشائعة عن تفضيل الإسلام الرجل على المرأة[5].

---

(3) **النيل**.

(4) المرجع نفسه.

(5) يمكن الاطلاع على معارك زينب فواز الصحافية حول المفاهيم الإسلامية السائدة عن المرأة

كانت هَنا كوراني المرأة الوحيدة التي وافقت على السفر إلى شيكاغو، من بين النساء السوريات الست اللواتي وصلت إليهن الدعوات. وقد اندلعت حول هذه المشاركة معركة صحافية لمسنا عقابيلها في امتناع أستير أزهري عن السفر بسبب طبيعة مشاركتها واختيارها عضوًا في لجنة مؤتمر الجرائد والنسائية، ووضعها بعض الاشتراطات على إدارة المؤتمر لكي تشارك في أعماله. ونشرت جريدة **لسان الحال** خبر إدراج اسم أزهري في اللجنة المذكورة، اعتمادًا على رسالة السيدة أنطوانيت واكان، رئيسة اللجنة(6). ولكن محررة مجلة **الفتاة**، التي أعادت نشر رسالة السيدة واكان بعد ثلاثة أشهر، أتبعت الرسالة بتعليق مهم يجلي بعض الغموض عن هذا اللغز الذي لا يزال يشغل بعض الباحثين، ذكرت فيه أن مجموعة من الرسائل وردت إلى مجلة **الفتاة** من أستير أزهري تتعلق بهذا الموضوع، أي انتخابها في إحدى لجان المؤتمر، وأن أزهري طلبت في رسالتها الأخيرة ألا تنشر مجلة **الفتاة** شيئًا ممّا تضمنته رسائلها، إلى حين تلقّيها ردًا من بالمر على بعض تحفظاتها واشتراطاتها المتعلقة بالمشاركة. وذكرت محررة **الفتاة** أنه «امتثالًا لطلبها قد أرجأنا نشر ما تضمنته رسائلها الغراء إلى فرصة ثانية، ولكن وجدنا من باب الاعتراف بالفضل أن ننشر نسخة الرسالة المذكورة آنفًا، وضربنا صفحًا عن نشر باقي الرسائل مؤقتًا، رغمًا عما أعلنته «الفتاة» في عددها الأول، من استعدادها لنشر كل ما يرد إليها بشأن القسم النسائي في المعرض، البادئ ذكره»(7).

ليس واضحًا ما إذا كانت مشاركة هَنا كوراني وامتناع أستير أزهري مرتبطًا بعضهما ببعض، ولكننا لم نلحظ أي تفاعل بينهما، على الرغم من أنهما من بنات جيل واحد ومدينة واحدة، ولهما اهتمامات مشتركة، ولا نعلم سببًا لتلك

في: زينب فواز، **الرسائل الزينبية** (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014)، خصوصًا الرسالة الرابعة والثلاثين.

(6) **لسان الحال**، العدد 1458، الاثنين 7 تشرين الثاني/ نوفمبر غربي، و26 تشرين الأول/ أكتوبر شرقي 1892.

(7) **الفتاة**، السنة 1، ج 2 (1 كانون الثاني/ يناير 1893/ 13 جمادى الثاني 1310)، ص 78-80.

القطيعة. ولكن يمكن ملاحظة التناقض الكبير بين أفكار أستير أزهري بشأن حقوق المرأة ودورها في المجتمع، وأفكار هَنا كوراني في تلك المرحلة؛ إذ كانت أزهري تدعو في بعض مقارعاتها الصحافية في مجلة **الهلال** في عام 1894، وفي مجلتها **العائلة** التي أصدرتها في عام 1899 إلى مساواة كاملة مع الرجل، بما في ذلك حق العمل خارج المنزل[8].

أمّا زينب فواز، فأوضحت في رسالة إلى بالمر وجود عقبات شرعية إسلامية تمنع سفرها إلى الولايات المتحدة من دون «محرم»، ومع ذلك دعت بنات جنسها من السوريات والمصريات إلى المشاركة في فعاليات المعرض في مقالة نشرتها في جريدة **النيل**، من خلال إرسال مشغولاتهن إلى السوق الموازي لفعاليات المؤتمر[9].

ذكرت بالمر أن السوريات اللواتي تواصلت معهن كتابيًا أكدن لها أنه «سيكون من المستحيل تشكيل لجنة رسمية في هذا البلد[10]، كما أن الأعراف الاجتماعية تمنع النساء من الإقدام على مثل هذه الخطوة»، ولفتت إلى أن الحكومة في سورية (تقصد الوالي ومجلس الولاية)، «أبدت ترحيبها بتقديم أي مساعدة أخرى، وأنها ستبذل جهدها لإرسال مجموعة صغير من المشغولات، بشكل غير رسمي للمشاركة في المعرض النسوي»[11].

---

(8) Dyala Hamzah (ed.), *The Making of the Arab Intellectual: Empire, Public Sphere and the Colonial Coordinates of Selfhood* (London & New York: Routledge, 2013), chap. 6: Lital Levy, «Partitioned Pasts: Arab Jewish intellectuals and the Case of Esther Azhari Moyal (1873-1948)».

(9) فواز، ص 66.

(10) كانت بالمر تظن أن من شأن مراسلة أمهات أو زوجات ملوك وزعماء الدول أن تتجاوز التعقيدات البيروقراطية والاجتماعية، وأن تساهم في تشجيع الحكومات على تشكيل اللجان النسائية التي ستشارك في المؤتمر. وانسجامًا مع هذه الفكرة، أرسلت رسالة إلى السلطانة برستو قادين، الأم الروحية للسلطان عبد الحميد الثاني، دعتها فيها إلى حضور المعرض برفقة لجنة من النساء التركيات. غير أن هذه الدعوة، وبشكل غير متوقع، جوبهت برد عنيف من السلطنة العثمانية التي أرسلت إخطارًا إلى السفير الأميركي في اسطنبول أوضحت فيه أن السلطانة الأم هي سيدة مسنَّة، ونادرًا ما غادرت القصر، ولا تريد أن تتلقى مثل هذه الدعوات مجددًا؛ يُنظر: Çağrı Erhan, *Türk-Amerikan İlişkilerinin Tarihsel Kökenleri* (Ankara: Imge Kitabevi Yayınları, 2001), p. 373.

(11) Maud Howe Elliott (ed.), *Art and Handicraft in the Woman's Building of the World's*

وممّا قالته بالمر في تصريحها إلى جريدة **كوكب أميركا** العربية الصادرة في نيويورك: «لقد كتبت بنفسي إلى نساء سورية ومصر خصوصًا أحثهن على الاتحاد معًا لجمع ما يتمكنّ من جمعه من مصنوعات أيديهن، ألا يجعلن هذه الفرصة تفوتهن، ويرسلن ما قدرن على إرساله تحت ضمانة أنهن يبعن من معروضاتهن ما يسد مقدار ثمنه بالمصاريف اللازمة لجمعيتهن. فوردت لي مناسبة لذلك رسائل عدة من بعض فاضلات سورية ومصر، أظهرت لي أنه يوجد في صدور المشرقيات عزم يدفعن به الأعمال إلى الكمال، إن مُهدت لهن السبل، وتوفرت الوسائط..»[12].

يبدو أن بالمر، وبعد رسالة أستير أزهري المحبطة والمليئة بالاشتراطات، واعتذار زينب فواز لأسباب شرعية، لم تجد إلا هَنا كوراني لتوكل إليها مهمة إلقاء كلمة النساء السوريات إلى جانب مشاركتها في معرض المشغولات اليدوية، بحسب ما نفهم من محاضرتها المعنونة بـ «إنهاض الغيرة الوطنية لترقية البضائع الشرقية»، والتي ألقتها في مدرسة الأحد قبيل سفرها إلى شيكاغو، إذ قالت: «شرفتني حضرة الرئيسة المذكورة بأنها دعتني للخطابة في مدة المعرض عن حالة نساء بلادنا السورية وما هن عليه من العلم والأدب، فلم أر بدًا من تلبية هذا النداء الشريف، والامتثال لأمرها الكريم، لئلا يقال في المرأة السورية إنها لا تصلح لشيء، فعزمت بعد الاتكال على المتعال أن أذهب إلى تلك الأقطار، واضطررت إذ رأيت الجميع لاهيات، أن أجمع من أشغال المرأة السورية ومن صنوف بضائعنا الشرقية ما يتيسر للعرض في بناية النساء، لعلّي أستطيع أن أجعل للمرأة السورية اسمًا يذكر، وأعلن من آثارها أثرًا يشكر، وقد وفقني المولى إلى استحضار صنوف متضاربة من الأشغال التي هي بالحقيقة على جانب كبير من الإتقان والظرافة، ورأيت بين أقمشتنا الشرقية ما يليق بلباس الأميرات، وحلل المخدرات مع ما هو عليه بخس الثمن»[13].

Columbian Exposition Chicago 1893 (Paris; New York: Goupil & Co., Boussod, Valadon & Co., Successors, 1893), p. 15.

(12) **كوكب أميركا** (نيويورك)، السنة 1، العدد 17 (5/ 8/ 1892).

(13) هنَا كوراني، **إنهاض الغيرة الوطنية في ترقية البضائع الشرقية** (بيروت: مطبعة جمعية الفنون، 1893)، ص 12-13.

وانتقدت في محاضرتها تهافت النساء السوريات على البضائع والأزياء الغربية المستوردة «كيف كانت بأغلى الأثمان زعمًا بأن هذا مما يزيدنا تمدنًا ويكسبنا جمالًا، ونحن في ذلك لسنا سوى خَدَمَة لملكة الزي المتقلبة الرأي، المتغيرة الذوق، القاهرة الصولة، الظالمة القضاء، والتي تطلب من رعيتها تقديم أجسادهن وآدابهن وأموالهن على رغائبها التي لا تحصى..»[14].

واختتمت المحاضرة بدعوة نساء سورية إلى إظهار الشهامة العربية والغيرة الوطنية، «ضد هذه البلية الصماء لقهر صولتها قبل تثبّت أقدامها في البلاد»، داعية النساء إلى «ارتداء أنسجة بلادنا التي لا تقل جمالًا ورونقًا عن التي نتهافت إليها من البدان الأجنبية»[15].

وتنفيذًا لدعوتها، ارتدت هَنا كوراني زيًا تقليديًا من أزياء المدن السورية في القرن التاسع عشر[16]، وسافرت به إلى شيكاغو، بصحبة زوجها أمين أفندي كوراني.

ثانيًا: تمجيد الأنوثة أمام نساء العالم

وصلت هَنا كوراني وزوجها إلى نيويورك في 24 نيسان/ أبريل 1893 على متن السفينة «سنتيانا» المبحرة من بيروت، كما كتبت جريدة **كوكب أميركا** النيويوركية في عدد 28 نيسان/ أبريل. وذكرت الجريدة أن هَنا كوراني من الأديبات المشهورات، وأنها «بارحت نيويورك قاصدة شيكاغو، لتعرض في قسم النساء بعض أشغال يدوية ابتكرتها لتكون أنموذجًا دالًا على ما للسيدات في بلاد الشرق من الحذق والمهارة وعلو الهمة»[17].

وبعد أيام من وصولها إلى شيكاغو، افتُتح مبنى النساء أمام الزوار في

(14) المرجع نفسه.

(15) المرجع نفسه.

(16) هو الزي الذي ترتديه في صورها المعروفة المنشورة في هذا الكتاب.

(17) **كوكب أميركا**، السنة 2، العدد 55 (28/ 4/ 1893).

1 أيار/مايو 1893، وهو مبنى يحتل موقعًا مهمًا بين أبنية معرض شيكاغو الكولومبي، ومُوِّل من حملات التبرع، وصممته مهندسة معمارية شابة تدعى صوفي هايدن كانت تبلغ من العمر 21 عامًا، وخُصص لعرض الفنون والصناعات اليدوية التي أنجزتها نساء من أنحاء مختلفة في العالم.

ضم المبنى، إلى معرض المشغولات النسوية، أكبر مكتبة للمرأة عُرضت فيها مئات العناوين باللغات المعروفة المختلفة، والمتطرقة إلى موضوعات نسوية. كما أن جزءًا من المبنى خُصص للأمهات والأطفال[18]. وجرى افتتاح مؤتمر المرأة العالمي الأول في المبنى النسائي في 15 أيار/مايو، وعُقدت جلساته الـ 18 حتى يوم 22 منه، وشاركت فيه أكثر من 10,000 مندوبة من الولايات المتحدة وباقي دول العالم، وألقت ما يقارب الـ 500 مشاركة خُطبًا في حضور 150,000 مستمع. واستُهل ذلك كله بإعلان الحقوقي الأميركي الشهير ومسؤول المؤتمرات في معرض شيكاغو، تشارلز بوني (1831-1903)، أن القرن هو قرن تقدم المرأة، واستبدال قانون القوة بقانون المحبة[19].

نشرت جريدة *Chicago Tribune* (**شيكاغو تربيون**)، في سياق متابعتها فعاليات المؤتمر، خبرًا خاصًا بشأن خطبة هَنا كوراني عنونته بـ «صحافية سورية تتكلم أمام المؤتمر»، وقالت فيه: «إن أطرف خطب اليوم ألقته السيدة هَنا كوراني من بيروت في سورية. والسيدة كوراني كاتبة في مجلة **الفتاة** وجريدة **لسان الحال** اللتين تصدران في بيروت. كانت ترتدي زيها السوري التقليدي، مغطية رأسها بقبعة تقليدية ومرتدية سترة. كان موضوع كلمتها التقدم الحديث في صفوف نساء الشرق. وقالت: بما أن المرأة هي أم الإنسانية، فإنها تكون في وضع غير ملائم حين تسعى إلى أخذ مكان الرجل في العمل والهروب من قدرها الحقيقي. قد تكون المرأة طبيبة أو محامية أو كاتبة صحافية، ولكنها تكون امرأة

(18) Karen Manners Smith, *New Paths to Power: American Women 1890-1920* (New York: Oxford University Press, 1994), pp. 353-357.

(19) Barbara Babcock, «Women's Rights, Public Defense and the Chicago World's Fair,» *Chicago-Kent Law Review*, vol. 87, no. 2 (April 2012); «Women's Legal History: A Global Perspective,» *Chicago-Kent Law Review*, vol. 87, no. 2 (August 2012), p. 485.

بالفعل حين تؤدي واجباتها المنزلية. النساء الشرقيات هن أمهات حقيقيات. لا يوجد نساء في العالم يتفوقن عليهن في ذلك المجال، وأن ما يحتجنه بالفعل هو التعلّم»[20].

كما أن كلمتها المعنونة باسم «مجد الأنوثة» نُشرت في كتاب المؤتمر النسائي الذي ضم بين دفتيه جميع المشارِكات، وأرفقت الكلمة بصورة شخصية لها في زيها السوري الشرقي الذي اشتهرت به في ما بعد، مذيلة بموجز لسيرتها الذاتية.

استهلت هَنا كوراني كلمتها بانتقاد رأي الكاتب الفيلسوف الفرنسي الشهير جان جاك روسّو الذي قال إن مجد المرأة كامن في «كونها مجهولة»، واعتبرت أنه «بقوله هذا، كشف النقاب عن شكّه في مقدِّراتها وحدّة ذكائها، كما أثبت طموحه الأنانيّ في حصر القوة والمجد في الرجال دون النساء». ثم أردفت بالقول: «ولكنْ، لحُسن طالع المرأة، هبّت عاصفة التقدّم الفكري، فمحقت تلك النظرية؛ ذلك أن كثيرًا من النساء يقفن الآن، على مرأى من العالم أجمع، مكلّلات بأمجاد الظّفر، بعدما ذلّلن أنواعًا مختلفة من العقبات. إنّهنّ يكتبن بأحرف ضخمة من النور، بجانب الحقيقة: للمرأة أمجاد يستحيل أن يكسفها الظلام، ذلك أن المرأة، بروحها الكبيرة ونُبل أخلاقها، تكلّلت بغار النّصر، وتغلبت على جميع القوى الساعية إلى عزلها وتغييبها عن المجتمع». وأضافت متسائلة: «لكن ما هو المجد؟ وما هي الوسائل والسبل المؤدية إليه؟ أيقوم مجد المرأة على أن تحمل السلاح وتشنّ الحروب على رفاق الحياة، وتقتل ما أمكن قتله من البشر، وتعود من الوغى متسربلة بثياب مضرَّجة بدماء الرجال؟ أم يقوم مجدها على استكشاف الأماكن المجهولة من الأرض، بحثًا عن الذّهب والكنوز، والعودة إلى الوطن بثروات محمَّلة على الدّواب؟». وأجابت عن هذه التساؤلات بجملة حاسمة: «قطعًا لا! فتلك الأعمال وأمجادها مقصورة على الرجال». ثم أردفت: «فما هو مجد المرأة إذن؟ هل تنال المرأة المجد إذا جلست على عرش ملوكيّ، وتقلّدت الصولجان؟ أم إذا سكنت القصور الفخمة

(20) *Chicago Tribune* (Syrian Newspaper Woman Speaks), 26/5/1893.

التي تنطوي على كلّ ما يمكن أن يشتهي الإنسان؟ كلّا! فكثيرون من ذوي السلطان، الذين تربّعوا على العروش الرفيعة، لم يشتهروا إلا بالشراسة والظلم والمفاسد. وكثيرون منهم أمضوا حياتهم عبيدًا لأنانيّتهم، حتّى إذا ارتحلوا عن هذه الدنيا، لم يخلّفوا شخصًا واحدًا يمتدحهم».

وخلصت إلى أن «مجد المرأة كامن في تقواها وطهارتها، فإذا افتقرت إلى هاتين الخصلتين، ما عاد لحكمتها وعلمها وفهمها وأناتها من قيمة. وحدها التقوى تطهّر القلب والعقل، وتسمو بالأخلاق، وترفع من شأن الأنوثة. فعلى المرأة التي تنال المجد أن تتحلّى بالفطنة. وإذا تحلّت أيضًا بالعِلم، تجنّبت الفشل، وتأهّلت لخوض معترَك الحياة والفوز بالظّفَر، فالحكمة هي تاج المجد وصولجان السلطة عند المرأة». وأضافت متسائلة: «إنّي لا أستطيع أن أدرك لماذا لا تقنع المرأة بمكانتها، ولماذا ينبغي لها أن ترغم الرجل على أن يتنحّى لتقوم بعمله؟ فلا يُجدي أبدًا أن نرغم الرجال والنساء على العمل في الميدان نفسه، لأن ذلك يناقض نظام الطبيعة التي خصّصت بيئة لكل نشاط؛ فالمساواة بين الجنسين لا تعني المساواة في كمية الإنتاج، بل المساواة في مساهمة كلّ منهما في خير الجنس البشري»[21].

استحوذت هَنا كوراني على قلوب سيدات المجتمع الأميركي بعد خطابها الذي ألقته بلغة إنكليزية سليمة، فانهالت عليها الدعوات لحضور حفلات الاستقبال، وكانت مشاركتها في هذه الاستقبالات تحظى باهتمام الصحافة الأميركية، مع تجاهل جريدة **كوكب أميركا** لها لسبب مجهول!

ثالثًا: انتقاد نساء أميركا وصداقات مهمة

يبدو أن النشاطات الاجتماعية الكثيرة لم تمهل هَنا كوراني كي تتأمل الحوارات والنقاشات التي كانت تدور على هامش المؤتمر، بين المناضلات النسويات ذوات التوجهات الراديكالية، وأولئك المحافظات اللواتي كن يدعون

(21) *The Congress of Women Held in the Woman's Building: World's Columbian Exposition, Chicago, U.S.A., 1893*, ed. by Mary Kavanaugh Eagle (Chicago; Philadelphia: Monarch Book Company, 1894), pp. 359-360.

إلى التزام المرأة بيتها، وهي نقاشات تحدثت عنها الصحافة الأميركية بكثرة في ذلك الوقت، وكانت تعكس الصراع الفكري بين البرجوازية الصناعية الناهضة والأرستقراطية المحافظة التي تمتلك الأراضي والمزارع، وتلتزم تعاليم الكنائس البروتستانتية المختلفة.

عبّرت هَنا كوراني في رسالة إلى صديقتها هند نوفل، رئيسة تحرير مجلة **الفتاة**، عن استغرابها الشديد موقفَ النساء الأميركيات اللواتي يتمتعن بالدرجة الأولى من التقدم، بسبب عدم اقتناعهن «بما قسم المولى لهن»، بحسب تعبيرها. وانتقدت في رسالتها ما سمّته «دأب نساء أميركا على منازعة الرجل على إدارة أمور السياسة، وتولي المناصب الإدارية». وقالت: «لست بحامدتهن على هذه الأطماع الكبرى، لأن هذا ممّا يشوش الراحة العمومية، ويخرب فوق كل شيء السعادة البيتية، فالأَولى بهن القناعة بمقامهن الرفيع وبذل مقدرتهن في نشل غيرهن من بنات جنسهن اللواتي قد حكم الزمان عليهن بالذل والهوان»[22].

توضح الرسالة أن هَنا كوراني كانت لا تزال متمترسة وراء أفكارها الرافضة مشاركةَ المرأة في الشأن العام، ولكن هذه الانتقادات لم تمنعها من نسج علاقات مهمة مع نخبة المجتمع الأميركي، سنرى نتائجها العملية في الأخبار الصحافية التي تحدث بعضها عن نشاطات اجتماعية خارج المعرض، ومنها خبر نشر في 15 آب/ أغسطس 1893 في جريدة *Inter Ocean* **(إنتر أوشِن)** عن مشاركة هَنا كوراني في حفل استقبال لتكريم إدموند راسل، إلى جانب نخبة من سيدات المجتمع الأميركي[23]. وخبر آخر نُشر في 6 أيلول/ سبتمبر في **شيكاغو تربيون** يقول إن «السيدة كوراني ستحضر احتفالية مؤسسة كيلي، في وسط قاعة الموسيقى، إلى جانب شخصيات مرموقة أخرى، مثل العقيد ويل فيشر، والكابتن جاك كراوفورد، والنساء الأعضاء في اللجنة الرباعية»[24].

---

(22) **الفتاة**، السنة 1، ج 9 (1 آب/ أغسطس 1893/ 28 محرم 1310).

(23) *The Inter Ocean from Chicago* (Illinois), 15/8/1893, p. 3.

(24) *Chicago Tribune*, 6/9/1893.

ويبدو أن هَنا كوراني فكرت في بداية هذه المرحلة باستثمار علاقاتها الجديدة بنخبة المجمع الأميركي، وذلك بـ «إنشاء مجلة علمية أدبية أول كل شهر باللغة الإنكليزية»، وأنه «إذا وفق الله سيصدر العدد الأول من تموز/ يوليو المقبل»، بحسب تعبيرها، لافتة، في رسالتها إلى صديقتها هند نوفل، إلى وجود «أصدقاء ومعارف كثيرين» يأخذون بيدها، ويساعدونها قدر الإمكان. ولم تنس هَنا كوراني التأكيد لصديقتها أن «القصد الأكبر من هذه المجلة رفع الشرق وآله في أعين الغربيين، وإظهار حسنات أهله ومعارفهم وآدابهم وأخلاقهم، لعل الغربيين يرجعون عن احتقارهم للشرق واستخفافهم بشأنه»[25].

رابعًا: دفاع عن الشرق

كان هاجس الدفاع عن الشرق أحد الهواجس التي سيطرت على هَنا كوراني في أثناء وجودها في معرض شيكاغو؛ فهي عاينت عن كثب منشورات ساخرة، ومقالات هجائية، لمشارَكات الشرقيين في برنامج الترفيه الموازي للمعرض الكولومبي العالمي (World's Columbian Exposition). وحين كان الجدل محتدمًا حول الرقص الشرقي في شارع الترفيه ميدوِي بليزنس (Midway Plaisance) المجاور لمعرض شيكاغو، وما أثير حوله من كلام، حتى في المبنى النسائي، كان لهَنا كوراني موقف مدافع عن مواطنيها في المسرح الشرقي (Oriental Theatre Chicago)، الذي زُجّ في هذا الموضوع من دون وجه حق؛ فمنذ الأيام الأولى للمعرض، أثيرت في الصحافة الأميركية مسألة الرقص الشرقي، خصوصًا في الجناح المصري، ومدى انسجامه مع أخلاق المجتمع الأميركي وقيمه، وتحولت إلى قضية رأي عام صاحَبها جدل محتدم بين مؤيد ومعارض، وحاول بعضهم زج مسرح أبي خليل القباني (1842-1903)، المسمى «المسرح التركي»، في الموضوع لأسباب غير معروفة!

وذكرت **كوكب أميركا** أن جريدة **اللورد** نشرت مقالة مطولة في الثالث

(25) **الفتاة**، السنة 1، ج 9 (1 آب/ أغسطس 1893/ 28 محرم 1310).

عشر من الشهر نفسه بقلم مراسلها في شيكاغو يدافع فيها عن الرقص الشرقي، ويتهم جميع المعترضين عليه بالجهل، ويزعم أن جميع الحركات التي تؤديها الراقصات لها رموز في معتقدات الشرق القديمة، مستشهدًا برقص «هيروديا أمام هيرود الكبير، حين سحرت لبه وأمالت إليها قلبه». وأشارت **كوكب أميركا** أيضًا إلى أن رجال «الفئة المتدينة المحافظة في المجتمع الأميركي منعوا نساءهم من زيارة موضع الرقص، أمّا الرجال خصوصًا، المنفتحون منهم، فكانوا يسرّون به فيأتون المسرح أجواقًا، وقد أدى هذا الجدل والتناقض في الآراء إلى زيادة الإقبال على المسرح المصري، فغص البناء المختص بالراقصات بجماهير الزائرين. وقد أدى ذلك إلى اتفاق رجال الدين المسيحي في شيكاغو وغيرها بأن يخطبوا على منابرهم الكنسية داعين إلى منع الرقص الشرقي، ومطالبين الأهالي وموظفي الحكومة بالتحرك من أجل إلغائه تمامًا من معرض الأمة. وبعد تزايد الضغوط على مدير الجناح المصري جورج بنغالو لإقفال المسرح المصري، طالب الحكومة المحلية بدفع قيمة الأضرار والخسائر التي تلحق به، محتجًا بنص العقد الموقع بينه وبين إدارة المعرض، وهو ما رفضته الإدارة»[26].

ومع أن الجناح العثماني الذي كان يشغله حرفيون سوريون، وفرقة أبي خليل القباني المسرحية التي تسميها الصحف الأميركية فرقة المسرح التركي، لم يكونا معنيين بهذه القضية، لا من قريب ولا من بعيد، فإن بعض الأقلام حاولت تعميم الأمر على جميع المسارح الشرقية في الـ «ميدوِي بليزانس». وكمثل على ذلك مقالة نُشرت في جريدة *The Progress* **(ذي بروغرس)** في 19 آب/ أغسطس في أثناء احتدام الجدل، وكان الهدف منها التحريض ولا شيء سوى ذلك. وزعم المراسل أنه حضر أحد العروض في «المسرح التركي»، وأنه لم يكن فيه سوى 19 شخصًا، منهم 8 سيدات، و5 مدرّسات». وأضاف أنه رأى على «خشبة المسرح مع الموسيقيين الذكور ثلاث فتيات بدينات ذوات أجبن عريضة وأنوف كبيرة وكأنهن من الطبقات التركية الدنيا». وزعم

(26) **كوكب أميركا**، السنة 2، العدد 71 (18/ 8/ 1893).

أنه رأى «بنتًا تتمايل وتهز كتفيها وترتعش بمشيتها، وبين الفينة والأخرى تدفع بإحدى قدميها. في النهاية، يخرج ما يسمى Danse du ventre (دانس دو فانتر (رقص البطن))». وأردف: «يقال إنه مثير جنسيًا، قد يكون هذا الأمر صحيحًا عند بعضهم، لكنه لا يوحي عندي بشيء!»(27). ومن الواضح أن هذا المراسل الصحافي لم يطأ عتبة «المسرح التركي»، وأن ما كتبه مجرد أوهام وتخيلات مبنية على الشائعات في أحسن الأحوال.

كانت فاتحة الجدل العام حول هذه القضية قد انطلقت خلال اجتماع لمجلس مديرات المبنى النسائي بعد ظهر يوم 3 آب/أغسطس 1893. وانقسمت المجتمِعات بين معارضات يطالبن بإغلاق أماكن الرقص في «ميدوي بليزانس» ومؤيدات لاستمرار هذه العروض(28). ووقفت هَنا كوراني موقفًا مشرِّفًا في هذه القضية، فدافعت عن عروض «المسرح التركي»، وطالبت مجلس إدارة المبنى النسائي بمرافقتها لحضور عروضه ورؤية ما يقدم فيه عن كثب. وفعلًا رافقتها ثلاث من أعضاء مجلس الإدارة هن بارثينيا ب. رو من كاليفورنيا، ومدام إدوارد ل. بارتلت من نيو مكسيكو، وسالي سوثال كوتون من كارولينا الشمالية، لمشاهدة ما يقدمه «المسرح التركي». وقد كتبت كوتون في ما بعد أنها رافقت السيدات المذكورات إلى «المسرح التركي» بناء على دعوة من مدام كوراني، وأن الرقص كان رائعًا يشبه حركات الجمباز(29).

خامسًا: تجربة فريدة ومخاوف من العودة

كان مؤتمر النساء العالمي ومعرض شيكاغو بفعالياته المختلفة تجربة جديدة أكسبت هَنا كوراني كثيرًا من المعارف والأفكار، وهو ما سينعكس لاحقًا على قناعاتها السابقة؛ فهي ذكرت في رسالة إلى صديقتها هند نوفل، إلى أنها أمضت أيام المعرض «بين أشغال شاغلة، واجتماعات حافلة، ومؤتمرات

(27) *The Progress*, 19/8/1893, Image 7.

(28) «Want Midway Dances Stopped,» *Chicago Tribune*, 4/8/1893.

(29) Jeanne Madeline Weimann, *The Fair Women* (Chicago: Academy Chicago, 1981), p. 569.

منعقدة، وليالي أنس جامعة بين العلم والأدب، والزهد والطرب، والشموس والأقمار الأبهة، والافتخار، إلى غير ذلك من درس ثمين، وترويض بهي ممّا لا نهاية له في دائرة هذا المعرض العام الجامع بين قبائل الأرض على اختلاف علومهم وآدابهم وصنائعهم ومتنزهاتهم ولهوهم، ومحاسنهم وقبائحهم، وأخلاقهم وعوائدهم».

وقالت في الرسالة ذاتها إنها تنظر «إلى هذا المعرض كمدرسة عامة مجانية لدرس طبائع وأخلاق وعوائد ومشارب البشر على ضروب صنوفهم وفنونهم»، متمنية لو أن كثيرين من أبناء بلدها أتوا إلى هذه الديار، «للتمتع بجمال فائق، وإتقان بديع يصادفه المرء في هذه الروضة الغنّاء أين سار وكيفما حل». وتحدثت عن مفعول ما شاهدته في هذا المعرض على النفس البشرية، فهو، كما قالت، «يفعل في قوى الإنسان العقلية كسحر عجيب، إذ يرقي العواطف لهجر الدنايا واكتساب الفضيلة ورفع الإدراك إلى درجة سامية، وينزّه الأميال عن كل فكر يشين، بل يخلق في صدر الإنسان محبة للعلم، وإكرامًا لذويه، ويوجِد في طي قلبه غيرة على التقدم ومحركًا للارتقاء من أمور شتى، ممّا يحتاجها شرقنا ويندبها عالمنا، ويحث عليها محب الإنسانية بيننا». وقالت لصديقتها: «تأكدي يا عزيزتي بأنني كلما تأملت في جمال هذا المعرض، وعظم مساحته وما حواه من البدائع والغرائب، تاقت نفسي إلى الدرس والاستفادة والتنزه بين علومه الزاهرة، وفنونه الباهرة، ورياضه الزاهية، حتى أصبحت به كأني مأخوذة بمدهشاته، مسحورة بعجائبه، لا أقوى على عمل كان خارجًا عن دائرته، ولا أرى سرورًا إلا بروضته، ولهذا أرجوك صفحًا كريمًا أيتها الكريمة لقاء تأخيري عن مكاتبة **الفتاة** العابقة بمسك آدابك، لأن وقتي قصير جدًا، والشواغل كبرى»[30].

وأكدت هَنا كوراني لصديقتها، صاحبة مجلة **الفتاة** ورئيسة التحرير فيها أنها تكلمت كثيرًا على المجلة مع أكثر صديقاتها اللواتي كن من نخبة المجتمع الأميركي، مشددة عن ضرورة أن تصدر المجلة بنسخة إنكليزية إلى

(30) **الفتاة**، السنة 1، ج 10 (15 شباط/ فبراير 1894 - 9 شعبان 1311).

جانب العربية لكي يتسنى توزيعها في الولايات المتحدة الأميركية. وأبدت تعجبها من كبر عدد الجرائد النسائية، «وجميعها تعود على صاحبتها بالشهرة والمقام الرفيع والدرهم البراق، حيث لا يمر بي يوم، مع كوني غريبة الديار، إلا ويأتيني عدد، وأحيانًا أعداد من هذه الجرائد النسائية التي أقل جريدة منها لا يقل عدد مشتركيها عن العشرة آلاف، وبعضها تتوزع على ما يزيد عن مائتي ألف مشترك، فضلًا عن ذلك فإن لمحرراتها ومديراتها المقام الأول في الهيئة الاجتماعية»[31].

غير أن هذه التجربة الفريدة، الممتدة على مدى ستة أشهر، لم تكن لتمضي من دون منغصات؛ إذ اغتال مسلح ساخط عمدة شيكاغو كارتر هاريسون (1825-1893) في 28 تشرين الأول/ أكتوبر، فأُلغيت احتفالات اختتام المعرض الكولومبي المقررة في الـ 30 من الشهر نفسه، وغادرت الوفود مسرعة إلى نيويورك استعدادًا للعودة إلى الأوطان، غير أن هَنا كوراني تمهلت في العودة، في ما يبدو، بسبب الأخبار المقلقة الآتية من بيروت؛ إذ ذكرت جريدة **كوكب أميركا** أن سوريين كثرًا «باتوا يتلكأون عن السفر لمّا علموا من الإهانات التي لحقت بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الوطن، بسبب وشايات كاذبة علمت مصادرها وأسبابها، وعمّا قليل تنجلي غياهبها وأن الباطل كان زهوقًا»[32].

كان لافتًا أن تمتنع الجريدة المذكورة، والتي تصدر في نيويورك باللغتين العربية والإنكليزية، عن نشر أي نشاط من نشاطات هَنا كوراني، باستثناء خبر وصولها، على الرغم من انشغال الصحافة الأميركية بها طوال فترة المعرض. ويعكس هذا الإهمال المتعمد من جانب إدارة الجريدة الموالية للسلطنة للعثمانية، موقف وفد السلطنة الذي كان ينظر بريبة إلى نشاط هذه السيدة التي تحدت قرار «يلدز» المتحفظ عن المؤتمر، ومثلت نساء سورية بمعزل عن

(31) المرجع نفسه.

(32) **كوكب أميركا**، السنة 2، العدد 83 (1893/11/10).

إرادة السلطان[33]. والحق أن هذا الإشكالية، أي إشكالية تمثيل نساء سورية، كانت تعكس تعقيدًا من جملة تعقيدات تتعلق بظهور نزعة نحو الاستقلال أو اللامركزية بدأت تعبّر عن نفسها قبل ذلك بأكثر من 10 سنوات في سوريا العثمانية، كما تدل تقارير «جهاز الخفية» (الاستخبارات)[34].

مهما يكن من أمر بقاء هَنا كوراني في الولايات المتحدة بعد اختتام مؤتمر النساء العالمي ومعرض شيكاغو، فإن تحولًا مهمًا بدأ يظهر على تفكيرها بشأن حقوق المرأة والمشاركة السياسية، كما تدل تصريحاتها للصحافة الأميركية. ومن المؤكد أن هذا التحول كان بسبب ارتباطها بصداقة وثيقة مع سيدة أميركية كانت تُعَدّ أشهر داعية إلى حق المرأة في التصويت.

(33) وافقت السلطات العثمانية على إرسال كتب الكاتبة فاطمة علياء هانم الثلاثة، للمشاركة في معرض الكتاب العالمي في مبنى النساء، والذي ضم أكثر من أربعة آلاف عنوان. وفاطمة علياء توبوز هي ابنة المؤرخ الشهير جودت باشا، وهي أول كاتبة تركية، وأول ناشطة في مجال حقوق المرأة في المجتمع التركي آنذاك. أُدرجت كتبها الثلاثة التي بحثت فيها أوضاعًا اجتماعية تتعلق بالمرأة التركية، في لائحة محتويات المكتبة الكبرى في مبنى المرأة من دون ترجمة حتى للعناوين! ويمكن القول إن حماسة السلطان عبد الحميد لها وتوصيته بأن تشارك كتبها في معرض الكتب النسائية في شيكاغو، تنطلقان من كون دعواتها إلى تحرير المرأة ذات خلفية إسلامية محافظة، ينظر: Erhan, p. 374.

(34) يمكن تتبّع نمو هذه النزعة الاستقلالية في سوريا العثمانية من خلال تقارير يلدز الأساسية المتعلقة بالأوضاع التي رافقت عزل مدحت باشا، وتقارير متعلقة بإغلاق مسرح أبي خليل القباني، ومقالات مجلة **النحلة** التي كانت تصدر في لندن، يُنظر: تيسير خلف، **وقائع مسرح أبي خليل القباني في دمشق، 1872-1883** (ميلانو: دار المتوسط، 2019).

الفصل الثاني

خطيبة محترفة في بلاد العم سام

أولًا: رعاية ماي سيوول

ارتبطت هَنا كوراني في أثناء فعاليات المؤتمر النسائي العالمي بصداقة متينة مع سيدة أميركية كانت تُعَدّ من أبرز رموز تحرير المرأة وعرّابة حق التصويت للنساء في الولايات المتحدة؛ إنها ماي رايت سيوول (M. W. Sewall)[1]. وكان لهذه الصداقة أبلغ الأثر في التحولات الفكرية التي طرأت على رائدتنا في الفترة التي أعقبت نهاية المعرض الكولومبي.

كانت سيوول مناضلة أميركية معروفة بدعواتها المعنية بحقوق المرأة والسلام العالمي، وكانت من بين مجموعة صغيرة من النساء اللواتي أسسن نادي «إنديانابوليس النسائي»، الذي عُقد اجتماعه الأول في 18 شباط/ فبراير 1875، كما عملت رئيسةً للجنة التنفيذية لجمعية حقوق المرأة الوطنية الأميركية من عام 1882 إلى عام 1890، وكانت أول أمينة للمنظمة، كما كانت عضوًا بارزًا في اللجنة التي أشرفت على الإعداد لمؤتمر النساء العالمي في شيكاغو في عام 1893.

في أثناء تعرّف هَنا كوراني إلى سيوول، كانت هذه الأخيرة منشغلة

---

(1) ماي رايت سيوول (1844-1920): مُصلحة أميركية معروفة بدعواتها لحقوق المرأة والسلام العالمي. شغلت منصب رئيسة المجلس الوطني للمرأة في الولايات المتحدة في الفترة 1897-1899، ورئيسة المجلس الدولي للمرأة في الفترة 1899-1904. إضافة إلى ذلك، ساعدت في تنظيم الاتحاد العام لأندية النساء، وشغلت منصب رئيسة المجلس النسائي. عيّنها الرئيس الأميركي وليام ماكينلي ممثلة أميركية للنساء في معرض يونيفرسال (1900) في باريس، ينظر: Ray E. Boomhower, *Fighting for Equality: A Life of May Wright Sewall* (Indianapolis: Indiana Historical Society Press, 2007), p. 11.

بمؤتمرات حق التصويت للمرأة، وهو جزء من النضال الذي كانت تقوم به نخبة من النساء الأميركيات التقدميات لتحقيق المساواة التامة بين الرجل والمرأة في القوانين الأميركية.

بيَّنت رسائل هَنا كوراني إلى سيوول مدى المحبة والاحترام العميقين اللذين كانت تكنّهما لصديقتها الأميركية الجديدة، ومنها رسالة بعثت بها بعد اختتام معرض شيكاغو بأيام قليلة وقالت فيها: «إنك غادرتِ شيكاغو عصر يوم الأربعاء وأخذت معك كل ما هو ساحر ونبيل وجميل وتنويري وممتع في معرض العالم، والمتمثل في حضورك الآسر المبهر، وسحرك، وجمالك الذي حل في ذلك المكان.. أود أن أقول لك إنني أشعر بغصة لرحيلك، وأود أن أعبّر عن مدى اشتياقي إلى النور الذي يشع من عينيك، وإلى الرقة في صوتك، وإلى رجاحة تفكيرك، وكل ما أقوله الآن ليس سوى تكرار بلا معنى للشيء ذاته، ومع ذلك أحب أن أطيل التركيز على صفحة من الحياة التي عشتها في أميركا، ضمن حياتي ككل، والتي ولدت في داخلي عشقًا متجددًا لأي نشاط مستقبلي، ودفعتني إلى الاعتقاد والإيمان بأن بوسع المرأة أن تكون عظيمة هي أيضًا، بما أنك أنت نفسك امرأة..»[2].

مع ذلك المديح، لا يبدو أن جلسات هَنا كوراني «التنويرية» مع سيوول، على هامش مؤتمر شيكاغو، أحدثت تأثيرًا دراماتيكيًا على صعيد قناعاتها الراسخة بشأن دور المرأة في المجتمع؛ فبعد أيام من اختتام المعرض الكولومبي، دُعيت هَنا كوراني إلى إلقاء محاضرة في إحدى قاعات فندق «أوديتوريوم» في مدينة شيكاغو بعنوان «انطباعاتي عن أميركا»، عبّرت فيها عن حبّها العميق لأميركا عمومًا، عظمتها، ونسائها، وسادتها وليس رجالها! وأشارت إلى خطأ الرجال لعدم تخليهم عن بعض مقاعدهم النيابية للسيدات، ولكنها اعتبرت أن الخطأ يقع على عاتق السيدات اللواتي يسعين إلى المساواة التامة مع الرجال في كل شيء! كما انتقدت هَنا كوراني في محاضرتها مضغ

---

(2) May Wright Sewall, «Letter from Matilde Bajer to May Wright Sewall (1917),» Indianapolis Special Collections Room, Indianapolis Public Library, letters, N. 1.

الرجال الأميركيين التبغ، مؤكدة أنها خطيئة لا تُغتفر! وحمّلت الصحف الكبرى المسؤولية عن انعدام الأخلاق في أماكن معيّنة[3].

وكما هو واضح من هذا الخبر، فإن هَنا كوراني تقدمت خطوة خجولًا إلى الأمام، على الرغم من تشتت أفكارها؛ إذ بدأت تطالب ببعض المشاركة السياسية للمرأة، ولكن بعد أن يتخلى الرجال عن بعض المقاعد لمصلحتها، معيدة التشديد على انتقاد النساء اللواتي يطلبن المساواة التامة مع الرجال!

بعد أيام، دعيت هَنا كوراني، «ممثلة نساء سوريا»، كما عرّفتها *Indianapolis Journal* (**إنديانابوليس جورنال**) النصفية، للمشاركة في ندوة مشتركة مع زمبيني سالازار، ممثلة الملكة الإيطالية، للحديث عن أحوال المرأة في كل من سورية وإيطاليا، وذلك في مقر النادي المعاصر في مدينة إنديانابوليس[4]. ولا شك في أن هذه الدعوة رتبتها سيوول؛ فإنديانابوليس مدينتها، وكان زوجها ثيودور سيوول شخصية اجتماعية بارزة في المدينة، ومن أبرز دعاة تحرر المرأة، وكان منزل الزوجين منتدى للنخبة المثقفة والمتحررة في عموم الولاية، وفي هذا المنزل تعرفت هَنا كوراني إلى شخصيات اجتماعية تقدمية، أشارت إليها في رسائلها اللاحقة إلى صديقتها.

كتبت هَنا كوراني رسالة من مدينة سينسيناتي في ولاية أوهايو المجاورة لإنديانا، في 8 كانون الأول/ ديسمبر1893، عبّرت فيها عن امتنانها للمعارف التي حصلت عليها واكتسبتها في منزل ماي سيوول «المثالي»، وتحدثت عن بعض الشخصيات التي تعرفت إليها في سينسيناتي، ومنها شخصيات بارزة اجتماعيًا وأكاديميًا، ثم تطرقت إلى امرأة تدعى ثروول قدمت لها نصائح تتعلق بالمحاضرات، وبأنها تستطيع أن تنجز أمورًا كثيرة على هذا الصعيد، خصوصًا الاستفادة من لكنتها باللغة الإنكليزية في التسويق لنفسها! وأوصتها بأن تبقى في فندق «غراند هوتيل» الفخم على الرغم من تكاليفه الباهظة، لأن ذلك سوف

(3) *The Inter Ocean from Chicago* (Illinois), 14/11/1893, p. 3.

(4) *The Indianapolis Journal*, 23/11/1893, p. 5.

يجعل الطبقة المخملية تُقبل عليها. وذكرت هَنا كوراني في رسالتها أن ثروول طلبت منها أن تضع نفسها تحت إدارتها وإمرتها (أي إدارة ثروول)، على أن تقوم بكل ما تأمرها به، كي تضمن لها دخلًا محترمًا من محاضراتها التي سوف تلقيها بشكل منتظم.

في ما يتعلق بالمحاضرات، أخبرت هَنا كوراني صديقتها سيوول بأنها لم تصل إلى شيء محدد بشأنها، لكنها ستتواصل معها في ما يخص الموضوع، وهو ما يدل على أنها كانت تخوض مفاوضات مع أشخاص عدة عرضوا عليها إدارة أعمالها، منهم، إضافة إلى ثروول، شخص يدعى برايان[5].

يبدو أن مسألة تنظيم المحاضرات والندوات، وهي مأجورة، حسمتها هَنا كوراني بشكل مختلف؛ إذ إنها تعلمت شيئًا فشيئًا كيف تدير أمورها بنفسها، وهذا ما عبّرت عنه في رسالة وصلت في أواخر شباط/ فبراير 1894 إلى صديقتها سيوول من مدينة بروكلين أوهايو، أخبرتها فيها كيف نجحت في ترتيب محاضرة أمام منتدى سوروسيس (Sorosis) النسائي الشهير[6] بدعم من سيدة مجتمع تدعى هيلموت، وأن الجمهور الذي سمعها «كان في غاية الرضا والبهجة والسرور». وكان ممّا قالته وعبّرت به عن التغيير الكبير في أفكارها: «شعرت بأنني مؤثرة، وبأنني أتطور بصورة يومية، فالحرية والاستقلالية جوهرتان كريمتان بالنسبة إلى المرأة، لما يمنحانها من الإشراق ويجعلانها تشع وتلمع. لم أكن بحياتي مشرقة كما أنا الآن، إلا أنني أعرف وأشعر بأن مرحلة الإشراق بدأت تفعل فعلها في داخلي؛ إذ لم أدافع البتة عن حق المساواة والاستقلالية الشخصية كما أفعل الآن، لقد بدأت أشعر بأنه عوضًا عن التدخل بهذا الشكل بالصفات الذاتية للمرأة ووعيها، يجب عليهم أن يحددوا تلك الأمور وفقًا لحقوقها»[7].

---

(5) Sewall, letters, N. 2.

(6) أول منتدى نسائي محترف أُسس في آذار/ مارس 1868 في مدينة نيويورك.

(7) Sewall, letters, N. 3.

ثانيًا: حق المرأة في التصويت

كان للندوات والمحاضرات والنقاشات التي كانت تتلو ذلك، أثر بالغ في صقل أفكار هَنا كوراني في هذه المرحلة، ولكن لا يمكن إغفال تأثير الجلسات التي كانت تنظمها ماي سيوول وزوجها في منزلهما في إنديانابوليس، حيث أمضت هَنا وقتًا ثمينًا في ضيافتهما، كما قالت في رسائلها. ولعل أبرز نتائج هذه الصداقة بين السيدتين ترشيح هَنا كوراني للمشاركة في المؤتمر السنوي الـ 26 لحق المرأة في التصويت في الفترة 15-20 شباط/ فبراير 1894 في قاعة ميوزيتار الموسيقية في واشنطن العاصمة.

قدمت سكرتيرة المؤتمر أليس ستون بلاكويل (A. S. Blackwell) ملخصًا ممتازًا لهذا المؤتمر في جريدة *Woman's Journal* **(وُمانز جورنال)** التي كانت تترأس تحريرها، جاء فيه: «على المنصة، وُضِعَتْ لافتة كبيرة حول نجاحات الحق في الاقتراع، تحملٍ نجمتين لوايومنغ وكولورادو، ونجمتين إضافيتين مرسومتين بخط ذهبي لكلٍ من كانساس ونيويورك اللتين تعملان على تعديلات تضمن المساواة الحق في الاقتراع الآن، وتأملان إضافة نجومهما إلى المجموعة في [تشرين الثاني] نوفمبر المقبل.. وجانب اللافتة، عُلّق العلم الأميركي، وعلم إسبانيا الذهبي العظيم بخطوطه الحمر، وعلم تركيا القرمزي مع هلاله ونجمته، والعلم البريطاني، وهذه الأعلام الثلاثة الأخيرة على التوالي تخص السينيوريتا كاتالينا دي ألكالا من إسبانيا، والسيدة هَنا كوراني من سورية، والآنسة كاثرين سبنس من أستراليا، اللواتي كانت لهن مشاركة في البرنامج»[8].

وممّا نقله كتاب *The History of Woman Suffrage* **(تاريخ حق المرأة في التصويت)** عن هَنا كوراني في الكلمة التي ألقتها، أن حديثها «بلغتها الإنكليزية الناعمة والمكسورة»، تركز على «كيفية نظر نساء العالم القديم إلى نساء أميركا لتحريرهن من عبودية العادات والقوانين»[9].

---

(8) Ida Husted Harper, *The History of Woman Suffrage, vol. IV: 1883-1900* ([n. p.]: Susan B. Anthony, 1902), p. 221.

(9) Ibid., p. 228.

أمّا جريدة *The Evening Star* **(ذي إيفنينغ ستار)**، فذكرت أن الجمهور استمع باهتمام بالغ إلى كلمة هَنا كوراني من سورية، التي تراجعت فيها عن رأيها السابق، المستند إلى وجهة نظر مشرقية، المتحفظ عن حق المرأة في التصويت. ونقلت الجريدة التي تصدر في العاصمة واشنطن عن هَنا كوراني قولها: «إن عوالم الماضي البعيد أظهرت أن المرأة شاركت في جميع الشؤون الإنسانية». وأضافت: «إني اقتنعت بوجود أسباب وجيهة تدعو السيدات للتصويت، ولم أر سببًا واحدًا يمنعهن من التصويت». وقالت: «إن من الظلم منع المرأة من ممارسة حقوقها»[10]. وكتبت لصديقتها سيوول عن ذلك المؤتمر: «أعتقد أنه لا بد أنك قرأت عن حق المرأة في التصويت، واطّلعت على كل ما يتعلق به، لذا أعتقد أننا يجب أن نعيد ونكرر ما طالعناه». ثم ذكرت لها أنها التقت «السيدات المؤيدات لحق المرأة في التصويت في مدينة بروكلين بمقاطعة كينغ»، وأنها تناولت معهن العشاء لمناسبة هذه الذكرى (الذكرى 26 لحق المرأة في التصويت)، وعلى رأس هؤلاء النسوة أنتوني، محررة كتاب *The History of Woman Suffrage* **(تاريخ حق المرأة في التصويت)** وفاو وتشابيران، وكثير من الشخصيات البارزة التي كانت حاضرة.

وذكرت هَنا كوراني أنها حضرت أمسية رائعة مع هؤلاء السيدات، وألقت خطابًا رحبت من خلاله بالحاضرين باسم المشرق، وقالت إنها ستذهب بعد تحرير الرسالة لتلقي محاضرة أخرى، إذ أصبحت ارتباطاتها كثيرة وبلا حدود، كما أوضحت لصديقتها في الرسالة[11].

ثالثًا: في أشهر المنتديات الأميركية

كان لخطاب هَنا كوراني في نادي «سوروسيس» الشهير أعظم الأثر في اقتحامها مجتمع النخبة الأميركي، ولا شك في أن قوة شخصيتها وحضور بداهتها ساهما في إحداث تأثير قوي في مستمعيها.

---

(10) *Evening Star* (Washington DC), 17/2/1894, p. 6.

(11) Sewall, Letters, N. 3.

وقبل محاضرتها في النادي النيويوركي العريق، التقتها جريدة *New York Times* (**نيويورك تايمز**) وأجرت معها حورًا لم يخل من المناكفة؛ إذ سارع الصحافي إلى سؤالها عن المرأة الشرقية، فقالت له: «ألم تتعبوا من الحديث عن المرأة؟ لماذا لا تتحدث عن الناس بشكل عام؟». ولاحظ الصحافي أن هَنا كوراني خلعت لباسها الشرقي الذي ميزها خلال المؤتمر النسائي في شيكاغو، وقال إنها حتى عندما ترتدي الملابس الأوروبية تتميز بملامحها الشرقية ولهجتها المميزة التي تلثغ بحرف الراء. وحين سألها عن تأثير الألبسة الأوروبية فيها، فاجأته بجواب سريع: «لم يؤثر ذلك فيّ إطلاقًا، أنا معتادة ارتداء الملابس الأوروبية في بلادي، ولدينا فروع أشهر بيوتات الأزياء الباريسية، وبما أننا أقرب إلى باريس فنحن نحصل على الأزياء الأوروبية أسرع منكم»، ثم استدركت قائلة إنها لا تعتقد أن الثياب الأوروبية جميلة، فهي تعتقد، كما نقل عنها الصحافي، وكونها أجرت دراسة عن الثياب في بلادها، أن هذه الأخيرة أجمل من الثياب الأوروبية، وأنها تعتزم ارتداءها جميعًا، خصوصًا اللباس العربي الذي رأته ذات يوم على أميرة عربية التقتها. وفي ما يتعلق بالقبعات قالت للصحافي إنها لا ترى في القبعة العصرية شيئًا جميلًا، ولا تراها ملائمة لعينيها الشرقيتين، ولهذا فهي تضع أقمشة رقيقة على رأسها وحول رقبتها إذا تسنى لها ذلك.

أمّا النساء الأميركيات، فأعربت هَنا كوراني عن حبها لهن كونهن مستقلات وصاحبات مشروعات. وقالت إن أزياءهن عمومًا أفضل من غيرهن باستثناء الفرنسيات، ولكنهن، بحسب رأيها، أفضل من نساء أي شعب آخر.

وتطرق الصحافي إلى محاضرة ألقتها هَنا كوراني في مطعم شيريز، وهو مطعم نيويوركي لنخبة المجتمع، حيث استمع الحضور إلى حديثها عن الشرق والنساء الشرقيات. وأشار إلى أن الحاضرين صفقوا لها بحرارة مرات عدة، مؤكدًا أنها بدت فاتنة بثوبها الذي كانت ترتديه مع حجاب من التول مثبت بشريط فضي حول رأسها. وقال إنها كانت تتمتع بروح الدعابة، وأن محاضرتها كانت تزخر بالأقوال المأثورة المبهرة.

أما بشأن المحاضرة، فكتب الصحافي أن هَنا كوراني تحدثت عن بلادها وحاجتها إلى تعليم بعيد من الطائفية يرفع سوية الشعب، وقال إنها استشهدت بأقوال مأثورة لشعراء عرب أظهرت من خلالها احترامهم وحبهم الكبير للنساء. وبحسب الصحافي، قالت هَنا كوراني «إنكم تعتقدون أن النساء في بلادنا مضطهَدات، ولكنهن لسن كذلك، إنهن يبذلن كل ما في وسعهن من جهد لإسعاد أزواجهن، وهن المسيطرات في أغلب الأحيان، إذ من الأفضل السيطرة من خلال التخطيط بدلًا من السيطرة من خلال القوة».

وعن النساء الأميركيات قالت إنهن سبقن السوريات بمراحل وأشواط، وإنها تعتبرهن القوة التي تحكم هذه البلاد. وقالت إنها أخبرت السيدات في واشنطن بأنهن يصوتن فعلًا بناء على تأثيرهن في الرجال، في إشارة إلى مشاركتها في «مؤتمر حق المرأة في التصويت» السابق الذكر. وقالت أيضًا إن التعليم جيد في سورية، ولكنه لا يعلّم الفتيات لكي يصبحن محاميات أو طبيبات، بل يقدم لهن معارف تساعدهن على تحسين شروط المنزل. واستدركت بالقول إنها لا ترى أن من الموائم أن تخوض المرأة في المشرق مجال الأعمال بين الرجال، نظرًا إلى أن المشرق ليس جاهزًا لتقبّل مثل هذا الوضع[12].

أصبحت هَنا كوراني، بعد أن استضافتها أهم المنتديات النيويوركية، ضيفة لا تغيب عن الصحافة الأميركية؛ إذ تسابقت كبريات الصحف والمجلات الأميركية لكتابة تقارير عن نشاطاتها، وإجراء مقابلات معها، كلها مزينة برسمها الشهير، وهي ترتدي زيها الشرقي المميز. وكتب مراسل جريدة *Boston Post* **(بوسطن بوست)** في 21 كانون الثاني/ يناير 1894: «السيدة هَنا كوراني من بيروت في سورية، شرقية خالصة. بشرتها عنبرية شفافة، وعيناها عميقتان تشعان بتعبير مبهر. شعرها الداكن يسقط على كتفيها مثل أمواج لطيفة، تغطيه بشال من الدانتيل الإسباني البيج وفق الزي السوري. قوامها مرهف وأنثوي ناعم، ولديها جاذبية تجعلها دائمًا في مركز أي مجموعة تكون موجودة فيها[13].

---

(12) *The New York Times*, 20/2/1894, p. 6.

(13) *The Boston Post* (Massachusetts), 21/1/1894, p. 18.

رابعًا: العادات والتقاليد الشرقية

كانت هَنا كوراني في خلال مقابلاتها الصحافية، تكرر معلومة عن تأليفها في عام 1891 كتابًا بعنوان **رسالة في الأخلاق والعادات**. ومع أننا لم نعثر لهذا الكتاب على أثر في المكتبات التي زرناها، فإن عمر رضا كحالة، صاحب كتاب **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام**، ذكر هذا الكتاب من بين مؤلفاتها، واستشهد بأبيات شعرية استهلت الكتاب المذكور تقول في مطلعها: «خطت يدي ما جال في خاطري ... وغايتي خدمة هذا الوطن»[14]، كما أن مقالةً صحافية أميركية أشارت إلى وجود نسخة منه في معرض الكتاب المقام على هامش المؤتمر النسوي العالمي في شيكاغو 1893، على الرغم من عدم وجوده في قوائم الكتب المعروضة[15].

ولا نعرف ما إذا كانت فعلًا قد ألّفت كتابًا بهذا العنوان، أم إن الأمر لا يخرج عن محاضرة مطبوعة في كراس، كما هي حال مؤلَّفيها الآخرَين، أي **إنهاض الغيرة الوطنية** و**التمدن الحديث**[16]، ولكن الأغلبية الساحقة من محاضراتها وندواتها في الولايات الأميركية، كانت في خلال العامين 1894 و1895 تدور في فلك هذا الموضوع، أي العادات والتقاليد.

احتل موضوع عادات الشعوب وفولكلورها حيزًا مهمًا في عروض معرض شيكاغو الترفيهية في ميدوِي بليزانس، وكان هذا الهوس نابعًا في الدرجة الأولى من انبهار الأكاديميا الأميركية بنظرية التطور الداروينية، وظهور علم الأنثروبولوجيا، الأمر الذي حفز فضول الأميركيين للتعرف إلى عادات الشعوب البعيدة وتقاليدها.

---

(14) عمر رضا كحالة، **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام**، ج 5 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1984)، ص 214.

(15) من اللافت أن سلسلة من المقالات نُشرت في مجلة **الفتاة** بعنوان «في الأخلاق والعوايد» من دون الإشارة إلى أن مؤلفتها هي هَنا كوراني، وهو كتاب يعرض العادات والتقاليد والأخلاق عند شعوب مختلفة.

(16) يُنظر ملاحق هذا الكتاب.

كان طبيعيًا أن يتركز اهتمام منظِّمي المحاضرات على موضوع العادات والتقاليد، خصوصًا أن الضيفة آتية من شرق المتوسط، حيث مسرح أحداث القصص التوراتية التي تؤثر عميقًا في وجدان الأميركيين. وكمثل على ذلك محاضرة في جمعية الشابات المسيحيات في نيويورك، حيث ذكرت جريدة **(ذي بروكلين ديلي إيغل)** *The Brooklyn Daily Eagle* في آذار/مارس 1894 أن هَنا كوراني ألقت الفلسفة جانبًا، وتحدثت عن الحياة في سورية بطريقة بسيطة وجذابة.

يبدو أن هَنا كوراني لجأت إلى أسلوب الصدمة في مخاطبة مستمعيها؛ إذ انتقدت بشدة الكرسي الذي جلست عليه، وقالت إنه غير مريح، على النقيض من المجلس المكسو بالصوف الناعم المستخدم في سورية. وقالت الجريدة إن هذا المدخل قادها إلى الحديث عن عادات الطعام لدى السوريين الذين لا يستخدمون الشوكة والسكين في مآدبهم، بل يتشبثون بالعادات القديمة التي تتيح لهم تناول طعامهم من دون تلويث الأصابع. ويبدو أنها شرحت هذا الأمر بشكل مستفيض، خصوصًا كيفية استخدام الخبز السوري التقليدي في ذلك. كما قارنت بيوت السوريين ببيوت الأميركيين وبيوت الأوروبيين، حيث اعتبرت أن بيوت السوريين تتميز بأنها مشرقة مبهجة، بعكس بيوت الأميركيين المكتظة بالأثاث والتحف التي تعيق الحركة، خصوصًا قاعات استقبال الضيوف، وهو ما لا نجده في غرف الضيوف في سورية، والتي تصلح لأن تكون مكانًا لتمضية أوقات الفراغ، بحسب تعبيرها. ومن انتقادات هَنا كوراني البيوت الأميركية استخدام الستائر بشكل مبالَغ فيه يمنع دخول الشمس، وهذا في رأيها أمر ليس في مصلحة البيوت، فاستخدام 6 ستائر أو 7 ستائر يحرم البيوت بهجة أشعة الشمس.

أما في ما يتعلق بعادات الزواج في سورية، فنقلت الجريدة عن هَنا كوراني قولها إنها تختلف بشكل كبير عن أميركا؛ فعند بلوغ الفتاة سن التاسعة أو العاشرة، والشاب كذلك، يزور الأب والأم أهل العروس ويخطبونها، ومنذ ذلك اليوم لا يسمح للفتاة بأن ترى زوجها المستقبلي حتى ليلة الزفاف. ومع أن هذا الموضوع أثار استغراب الحاضرات، أكدت هَنا كوراني لهن إن السوريين

سعداء بذلك، أمّا إذا لم يحصل وفاق بين الزوجين فيقع الطلاق. وذكرت الجريدة أن هَنا كوراني تحدثت عن العادات في حالات الوفاة والدفن والبكاء على الميت، وكيف يقوم الجيران والأقارب بتقديم الطعام لأهل المتوفى تعبيرًا عن المواساة والتعاطف. وفي ختام المحاضرة، ذكرت الجريدة أن هَنا كوراني ألقت قصيدة بلُغتها الأم (العربية) من دون أن تصحبها أي آلة موسيقية[17].

خامسًا: من المشاهير

أصبحت هَنا كوراني من مشاهير المجتمع الأميركي، وكانت كبريات الصحف والمجلات تتسابق لنشر أخبارها، وما عاد الأمر مقتصرًا على تغطية محاضراتها أو مناكفتها صحافيًا، بل غدت هي بشخصها موضوع المقالات والمقابلات الكثيرة في هذه المرحلة؛ ففي 28 نيسان/ أبريل 1894، خصصت مجلة **هاربرز بازار** النسوية الشهيرة مقالة مطولة حولها، مع صورة جديدة لم يسبق أن نُشرت في أي مطبوعة أخرى. ومع أن المقالة تضمنت معلومات منشورة في صحف أميركية حول نشأتها وعائلتها، فإنها تطرقت أول مرة إلى معاناتها الرقابة العثمانية للصحافة، حيث ذكرت أن مقالات كثيرة لها مُنعت من النشر.

وبعد أن أطنبت المجلة في تعداد مواطن الجمال في تعابير هَنا كوراني وشعرها وعينيها، تحدثت عن عقلها الوقاد وحكمتها، ورغبتها في البقاء فترة في الولايات المتحدة حتى تتمكن من درس المجتمع الأميركي بشكل معمق قبل أن تعود إلى سورية وتسعى إلى مساعدة المرأة الريفية، على وجه الخصوص، للنهوض من التدهور الاجتماعي الذي طال أمده[18].

وفي 20 أيلول/ سبتمبر 1894، نشرت جريدة **هيرالد تربيون** مقالة زُيِّنت برسم لها، تحت عنوان «جورج إليوت السورية»، في إشارة إلى الكاتبة الروائية البريطانية الشهيرة، التي عُرفت رواياتها ببُعديها النفسي والواقعي.

---

(17) *The Brooklyn Daily Eagle* (New York), 24/3/1894, p. 10.

(18) *Harper's Bazaar*, vol. xxvii, no. 17 (28 April 1894), p. 339.

وكتبت الجريدة أن هَنا كوراني هي المرأة السورية التي مثّلت مواطناتها في معرض شيكاغو العالمي بكل فخر، والتي كانت، منذ ذلك الحين، تلقي المحاضرات في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأميركية متحدثة عن الحياة السورية. ووصفتها الجريدة بأنها «امرأة شابة ساحرة، ملامحها شرقية واضحة، بشرتها زيتونية، وعيناها واسعتان وداكنتان، وذات شعر أسود». وأشارت إلى أنها ولدت قرب بيروت، في سورية، وتلقت تعلمها في مدرسة أميركية في تلك المدينة، وأنها بدأت منذ سن المراهقة تهتم بشكل كبير بقضايا سورية وشؤونها، وتمارس الكتابة، محاولة تنبيه أبناء بلدها إلى أخطائهم. وذكرت الصحيفة أن كتابها الأول حول العادت والتقاليد جذب الاهتمام إليها، وتُرجم إلى الفرنسية، وأنها كانت تسمى جورج إليوت السورية. كما ذكرت أن شهرة المؤلفة السورية الشابة وصلت إلى السيدة بيرثا بالمر، فوجهت إليها دعوة لتمثيل المرأة السورية في المعرض العالمي، فحضرت في الوقت المحدد، وفي الوقت نفسه أحضرت معها إلى أميركا معروضات من المطرزات السورية التي جذبت كثيرًا من الاهتمام والسرور.

ونقلت **هيرالد تربيون** عن هَنا كوراني قولها: «في الوقت الحاضر، ليس لدى نساء سورية منتديات، ولا منظمات، ولا مهن، باستثناء الواجبات المنزلية»، مكررة قولها إن سورية «في حاجة ماسة إلى مدارس غير طائفية، يتعلم فيها الأطفال العقائد المختلفة معًا على قدم المساواة، لأن ذلك يعلّم التسامح بين الجميع»[19].

وفي 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1894، نشرت جريدة **بوسطن بوست** مقالة عن هَنا كوراني، لمناسبة زيارتها المدينة واعتزامها إلقاء عدد من المحاضرات. وكررت المعلومات المعروفة والمنشورة في صحف أخرى، ولكنها نقلت عنها تصريحًا يقول إنها تنوي البقاء في بوسطن بعض الوقت، وأنها ستستمع إلى بعض المحاضرات، كما أنها ستقدم عددًا من المحاضرات عن الشرق: ماضيه وحاضره ومستقبله، وأثر التقدم الحديث في المرأة الشرقية، والمرأة

---

(19) *The Herald Tribune*, 20/12/1894, p. 8.

وعلاقاتها الإنسانية من وجهة النظر الشرقية، والمرأة السورية اليوم، وكثير من الموضوعات الأخرى[20].

وفي 21 تشرين الثاني/ نوفمبر نشرت *Wilkes-Barre Times* **(ويلكس بار تايمز)** تغطية صحافية لمحاضرة لها بعنوان «عادات المسلمين» في قاعة نادي الشباب المسيحيين في مدينة ويلكس بار في ولاية بنسلفانيا، تحدثت فيها عن النساء في الشرق. ومما نقلته الجريدة عنها قولها إن «المرأة الفارسية خاضعة لسلطوية الرجل»، وتحدثت عن «تشابه نسب الطلاق بين سوريا وأميركا، وأنها كانت تظن عكس ذلك». ومع أنها امتدحت أميركا «كدولة عظيمة ذات حضارة عريقة»، فإنها انتقدت القيم المادية في المجتمع الأميركي، إذ كانت لديها «أفكار عن الحب والعلاقات الاجتماعية لم تجدها في أميركا». كما أنها تحدثت عن «العادات الإجرامية في المشرق التي تسمح بتزويج فتاة في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها برجل في السبعين من عمره»، وانتقدت بشدة مبدأ «تعدد الزوجات، وكيف يضر بالمرأة المهملة بسبب تفضيل الزوج واحدة على أخرى، وهو ما يتسبب للمرأه المهملة بعار اجتماعي». وامتدحت جمال الدمشقيات، وقالت إنهن مرغوبات من الرجال أكثر من غيرهن، وأشارت إلى شحوب المقدسيات وغفلتهن، بحسب اقتباسات الجريدة من المحاضرة[21].

مضى عام 1894، وهَنا كوراني تواصل النجاح في إثر النجاح خطيبةً محترفة، ونجمة من نجمات مجتمع النخبة الأميركي، لا تكاد تجد وقتًا لتلبية الدعوات من المنتديات، والجمعيات التي باتت تنهال عليها من كل حدب وصوب. ويمكن القول إن تحولًا فكريًا كبيرًا طرأ عليها خلال هذا العام؛ إذ أصبحت أكثر جرأة في توجيه الانتقاد إلى المجتمع الذكوري في المشرق، المسؤول عن تجهيل الفتيات، وما عادت تنتقد المرأة في محاضراتها الأخيرة لمطالبتها بحقوقها، بل أصبحت تنادي علنًا بالمساواة في الحقوق السياسية، ومع ذلك كانت لا تغفل النواحي الإيجابية في المجتمع الشرقي، ولا تتوانى عن انتقاد مادية المجتمع الأميركي.

---

(20) *The Boston Post Newspaper Archives*, 10/11/1894, p. 5.

(21) *Wilkes-Barre Times* (Pennsylvania), 21/11/1894, p. 8.

الفصل الثالث

المرض والعودة

أولًا: التقاط عُصَيَّة السل

استهلت هَنا كوراني عام 1895 بنشاطها المعتاد، فنشرت الصحف الأميركية أخبارًا عن محاضرة لها في نيويورك بعنوان «غرائب الحياة المشرقية»، في 13 كانون الثاني/ يناير 1895، تحدثت فيها عن لباس الشرقيات عمومًا والسوريات خصوصًا، وكررت رأيها المعروف بأن السوريات يلبسن أفضل من الأميركيات والأوروبيات[1].

وفي آخر شباط/ فبراير، نشرت جريدة *The Buffalo Enquirer* **(ذي بوفالو إنكوَيرِر)** خبرًا عن محاضرة ألقتها في نيويورك بعنوان «النساء الشرقيات»، حيث وصف المراسل الصحافي طريقتها في الكلام بالسذاجة، وقال إنها تحدثت عن المتزمتين في مجتمعها الذين كانوا يستغربون أن تكون للمرأة اهتمامات غير زوجها[2]. وبعد خبر المحاضرة السابقة، بدأت الأخبار التي تغطي نشاطها تقل في الصحافة الأميركية، إلى أن نشرت جريدة *Dispatch* **(ديسباتش)** الصادرة في مدينة مولاين في إلينوي، خبرًا عن بدء تلقّي هَنا كوراني دروسًا في تعلم ركوب الدراجة الهوائية[3]، ثم خبرًا في **شيكاغو ترِبيون** حول محاضرة عن «العادات الشرقية»، قبل أن تنشر جريدة **نيويورك تايمز** في 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1895 خبرًا صادمًا عن إصابة هَنا كوراني بعُصَيَّة (بكتيريا) السل، ونصيحة الطبيب لها بالسفر إلى أوروبا[4].

(1) *The New York Times*, 27/1/1895, p. 11.

(2) *The Buffalo Enquirer*, 28/2/1895, p. 3.

(3) *The Dispatch from Moline* (Illinois), 9/8/1895, p. 2.

(4) *Chicago Tribune*, 20/7/1895, p. 3.

ذكرت الجريدة أن هَنا كوراني أبحرت على متن السفينة «نيويورك» في 2 تشرين الأول/ أكتوبر، حيث ستزور بعض الأصدقاء في باريس والإسكندرية قبل أن تذهب إلى مسقط رأسها قرب بيروت في سورية. وذكرت الجريدة أنها ستعود إلى أميركا فور تحسن صحتها للحصول على الجنسية الأميركية[5]. وأعلنت جريدة *Ottawa Daily Citizen* **(أوتاوا ديلي سيتِزن)** الكندية في 25 تشرين الأول/ أكتوبر إلغاء برنامج المحاضرات التي كانت هَنا كوراني تعتزم إلقاءها في كندا خلال فصل الشتاء، بسبب تدهور حالتها الصحية وسفرها إلى سورية. وذكرت الجريدة أن كوراني ستزور بعد تماثلها للشفاء كلًا من مقدونيا وأرمينيا، للوقوف على حقيقة المعارك التي تجري هناك[6]. كما نشرت جريدة **ويلكس بار تايمز** خبرًا عن مغادرة هَنا كوراني أميركا، وأشارت إلى أنها كانت تقدم محاضراتها «بطريقة ساحرة، مرتدية ملابسها المحلية السورية»، لافتة إلى أن هذه الموضوعات كانت عن الحياة العربية والشرقية، والآداب والعادات، والنساء في سورية الشرق بشكل عام. وذكرت الجريدة أيضًا أن «مناخ أميركا القاسي، مع تغيراته المفاجئة، لم يلائم هذه الفتاة القادمة من المشرق»، وقالت إن هَنا كوراني «ستعود إلى منزلها في سوريا فترة من الزمن لتأكل التين والعنب تحت السماء الزرقاء، ثم ستتوجّه بزيارة إلى مقدونيا وأرمينيا لتقديم سرد حقيقي للمعارك هناك، وكتابة التقارير للصحف الأميركية»[7].

من غير المعروف ما إذا كانت هَنا كوراني هي صاحبة فكرة البحث في أمور المعارك والاشتباكات في أرمينيا ومقدونيا، ولكن الأخبار بشأن الانتهاكات التي كانت تُرتكب في تلكما المنطقتين كانت تملأ الصحافة الغربية، ومن وجهة النظر المعادية للسلطنة العثمانية، ومن المستبعد أن تكون هي صاحبة الفكرة إن كانت تفكر جديًا في العودة إلى سورية، كونها تعرف القبضة الأمنية المحكمة في عموم السلطنة، ولذلك يبدو أن هذا التصريح المنسوب إليها ما هو إلا رد

(5) *The New York Times*, 6/10/1895, p. 9.

(6) *Ottawa Daily Citizen* (Ottawa, Ontario, Canada), 25/10/1895, p. 5.

(7) *Wilkes-Barre Times Leader* (The Evening News from Wilkes-Barre, Pennsylvania), 26/10/1895, p. 5.

على سؤال صحافي عن الأمر، وعمّا إذا كانت ستخبر قراء الصحف الأميركية بالحقيقة عندما تذهب إلى الشرق؟[8].

في أثناء وجودها في باريس في طريق عودتها إلى بيروت، التقتها مراسلة جريدة *The Star* (**ذي ستار**) النيوزيلاندية في فندق «دومينيسي» في شارع كاستياغليوني، حيث كان الفندق يشهد احتفالية مخصصة لها بعنوان «امرأة مميزة». وذكرت المراسلة أنها التقت هَنا كوراني في تشرين الأول/ أكتوبر، ووصفتها بأنها «السيدة التي مثلت النساء السوريات في معرض شيكاغو العالمي»، وقالت: «كان مثيرًا للاهتمام أن نسمع من شفتيها الصعوبات التي واجهتها»، وأنها كانت «تتحمل تقريبًا جميع النفقات المرتبطة بالمعرض».

ونقلت المراسلة عن هَنا كوراني قولها إن الألم كان يعتصر قلبها منذ طفولتها بسبب المعاملة التي تتلقاها بنات بلدها، والتي «عمليًا، كانت أفضل قليلًا من تلك التي تُمنح للعبيد، إذ كان عليهن طاعة أقاربهن الذكور، وإلا كانت العواقب وخيمة».

وقالت المراسلة إن السيدة هَنا كوراني «تكرس حياتها لتحرير المرأة في سوريا، وأنها تعمل بشجاعة على الرغم من الإحباطات الكثيرة». وأضافت أن كوراني «غادرت باريس في تشرين الأول/ أكتوبر متوجهة إلى بيروت في فصل الشتاء، وأنها تعتزم العودة إلى لندن في الربيع لإلقاء محاضرة استجابة لدعوات من جمعيات نسائية عدة»[9].

ثانيًا: الدعوة إلى نهضة شاملة

بعد عودتها إلى بيروت، وعلى الرغم من حالتها الصحية، ألقت هَنا كوراني في 26 أيار/ مايو 1896 محاضرة بعنوان «التمدن الحديث وتأثيره في

---

(8) اندلعت الاضطرابات في أرمينيا بين عامَي 1894 و1895 وانتقلت الاشتباكات إلى اسطنبول، وكان من نتيجتها مقتل عشرات الآلاف أغلبيتهم من الأرمن، كما اندلعت في الفترة ذاتها اشتباكات في مقدونيا كانت أغلبية الضحايا فيها من المسلمين.

(9) *The Star* (Issue 5602), 27/6/1896, p. 2.

الشرق» في قاعة مدرسة الأحد، حضرها أكثر من 600 شخص، تحدثت فيها بإسهاب عن ملامح الحضارة والتمدن في التاريخ القديم، ومنه التاريخ العربي الإسلامي، وفي العالم المعاصر. ومما قالته في محاضرتها المطولة: «التمدن الحديث ليس ما نشاهده في يومنا من معجزات التقدم المادي، بل هو الروح المحركة للعمل النافع المحيي للعزائم الرميمة، المنبّه على الإصلاح، والقائد إلى رياض الفلاح، ولذا تجدون البلاد التي استقرَّ فيها سابقة في العمران والحظ والفخار على ما سواها».

دعت هَنا كوراني أبناء وطنها إلى نهضة شاملة من خلال الاطلاع على تجارب الشعوب الأخرى؛ «إذ على هذه (النهضة) يترتب أمر التقدم والارتقاء الحقيقي، فممّا تقدّم نعلم ما هي حاجتنا الكبرى لنكون نحن والعصر على السواء. حاجتنا روح ينبث بيننا ليحيي فينا موات الهمم، ويجدد عزائمنا البالية، حاجتنا نور يشرق علينا سناؤه، فيبدد أوهامنا، ويجلو ظلام جهلنا، حاجتنا نار تحرق من بيننا الانشقاق والفساد وتفرُّق الكلمة والحسد والبغضاء، حاجتنا صوت يصرخ فينا للنهضة ويحثنا على العمل، حاجتنا يا قوم الإصلاح العام، وكفى بذلك إشارة لمن عقل؛ فمتى تمت هذه الشروط وحصلت لنا هذه الحاجات فحينئذ تبرأ جميع عللنا الوطنية، وتكمل نقائصنا المدنية، فيزيد شرقنا عمرانًا وتمدنًا وثروة، ويصبح العيش تحت سمائه النقية رغيدًا سعيدًا».

أما عن المرأة وحقوقها فقالت: «لقد أسعدني الزمان فشاهدتُ المرأة العصرية في كمال مجدها، فرأيتها الكاتبة المجيدة، والخطيبة المصقعة، والمتشرعة المدققة، والطبيبة الماهرة، والمخترعة النافعة، والسياسية المحنكة، ورئيسة الجمعيات الوطنية واللجنات الخيرية، والقائدة للهيئة الاجتماعية. وهي في كل ذلك ذات رقةٍ ودعةٍ وأنسٍ ولطفٍ وحلاوة ممّا يأخذ بمجامعِ القلوب، ويأسر الألباب بسحره الحلال. وقد دخلتُ منزلها فوجدتُه على حدٍّ فائق من الترتيب والنظافة والظرافة، قد اجتمعت فيه موارد الراحة ومناهل الملذات، وقد رأيت زوجها سعيدًا مفاخرًا بجمالها وآدابها وحكمتها، وأولادها صحيحي الأبدان، مهذبي الآداب، ومثقفي العقول، فَذُهِلْت ممّا أبصرت وقلت في نفسي:

واحيرتاه! كيف تسنّى لها والحياة، كما أعلم، قصيرة، أن ترقى هذه المعالي السامية والحظوة الكبرى؟ فوجدت بعد الفحص والمراقبة بأن ذلك هو نتيجة السعي واستغنام الفرص وترتيب الأوقات؛ فهي تعمل من الصبح باكرًا لحين منتصف الليل طبقًا لنظام لا تتعداه، والذي يمكنها من القيام بشؤون شتى».

وبعد أن أشادت بالمرأة العارفة العاملة، ذات التأثير الذي «لا يحدُّ في ترقية البشرية مدنيًا ومعنويًا»، دعت مواطناتها إلى أخذ زمام المبادرة؛ إذ يستحيل على المرأة مجاراة الرجل في سبق العلم والآداب إن لم تعول على نفسها، وتطرق باب الجد بيمينها، كما قالت، لأن «الرجال كما اشتهر عنهم يؤْثرون أنفسهم بالسيادة، ويختصون ذواتهم بكمال العقل والحكمة والدربة، فهم على ما يعتقدون سلاطين الكون، وأصحاب الحكم المطلق الذي يجب أن تخضع له وتنقاد إليه المخلوقات طرًّا، والمرأة من الجملة».

وفي هجوم غير مسبوق على الرجال قالت: «قد يؤيدون دعواهم هذه بمجرد النطق بأن الطبيعة قد حبتهم بهذه الامتيازات، وفضّلتهم بصلابة الجسم وقوة العقل على سائر من في الوجود، ولذلك فقد حقَّ لهم السلطة على المرأة الناقصة في الفهم والإدراك، ووجب عليها الرضوخ لإرادتهم، والامتثال لأمرهم. والاختبار علم المرأة صدق ما أصف به أسيادنا الرجال! ولا حاجة إلى إقناعها بحقيقة ما هم عليه من وحدة الملك والجبروت، فهل يكون من الرأي والحالة هذه بأن المرأة تتقاعد عن النهضة في طلب حقوقها الطبيعية من تهذيب وتثقيف ومساواة؟ وهل تفعل حسنًا بعد إذ علمت من استبداد الرجل ما علمت بأن تعتمد على قوته ليدفعها إلى التقدم، ويفتح أمامها باب الفخر، ويكللها بتاج المجد والانتصار؟». وخلصت إلى أن «الحكمة تجاوب: كلَّا. وأنا قد علمت بعد أن درست تاريخ النهضة النسائية في بلاد الغرب بأن الرجل لم يكتفِ بأن يدع المرأة وشأنها، بل قد أجهد قواه في سبيل مقاومتها وإرجاعها إلى حالها الأول من الجهل والاستعباد، أما هي ففازت بجهادها للحرية، وبإعلائها لشأن جنسها»[10].

---

(10) هَنا كسباني كوراني، **التمدن الحديث وتأثيره في الشرق** (بيروت: مطبعة المعارف، 1896).

ثالثًا: نادٍ للمرأة ورثاء أميركي

بعد محاضرة مدرسة الأحد، انقطعت أخبار هَنا كوراني عن الصحافة، ألّلهم باستثناء الخبر المنشور في مطلع عام 1896 في جريدة *Boston Globe* (**بوسطن غلوب**)، والمأخوذ عن رسالة بعثت بها إلى إحدى صديقاتها الأميركيات تخبرها فيها بأنها أسست ناديًا للنساء السوريات[11]، وخبر آخر عن هذا النادي في جريدة **ذي ويلكس بار نيوز**، جاء فيه أن هذا النادي «هو الأول من نوعه في المنطقة، وأنه توسع في فترة قصيرة وحظي باهتمام كبير من الشخصيات المؤثرة في البلاد»[12]. ولكن سرعان ما بدأت صحتها تتراجع، نتيجة استحكام داء السل بصدرها، إلى أن وافتها المنية في بلدتها كفرشيما في 6 أيار/ مايو 1898[13].

طار خبر وفاتها إلى الصحافة الأميركية التي تناولته بكثير من التأسف، مذكّرة بهذه السورية التي اقتحمت صالونات أميركا ومنتدياتها من أوسع أبوابها، وصادقت نخبة نساء المجتمع الأميركي، فكتبت جريدة *The Herald* (**ذي هيرالد**) في عددها الصادر في 18 آب/ أغسطس: «وفاة السيدة هَنا كسباني كوراني في بيروت السورية. وكانت كوراني قد جاءت إلى هذا البلد ممثّلة نساء سورية في المعرض العالمي، وأقامت عامين بعد انتهاء المعرض، وكانت قد تقدمت للحصول على الجنسية الأميركية، وساهمت في كثير من المجلات. وقد أقلقت أفكارها الحكومة السورية التي أمرت بتوقيفها»[14]. ونشرت جريدة *Saint Paul Globe* (**سِنت بول غلوب**) خبر الوفاة، مذكّرة بأنها «استرعت انتباه السيدة بيرثا بالمر، رئيسة مؤتمر المرأة في شيكاغو، وغيرها من الشخصيات النسائية البارزة من خلال مظهرها الشخصي وقدرتها على الخطابة، بحيث أصبحت نجمة في المعرض الكولومبي». وذكرت الجريدة أيضًا أن هَنا كوراني

---

(11) *The Boston Globe*, 28/6/1896, p. 31.

(12) *The Wilkes-Barre News*, 3/12/1897, p. 3.

(13) أدهم آل جندي، **أعلام الأدب والفن**، ج 2 (دمشق: مطبعة الاتحاد، 1958)، ص 530.

(14) *The Herald*, 18/8/1898, p. 8.

بقيت في نيويورك عامين، وكانت لها مساهمات أدبية. وكثيرًا ما عبّرت عن خوفها من العودة إلى بلدها خشية من الحكومة السورية التي تعارض أفكارها التقدمية. وأشارت الجريدة إلى أن الأمور تغيرت في سورية، وأن هَنا كوراني «كانت تعيش في بلدها بأمان، وأسست نادي المرأة السورية، وكذلك أسست نادي المرأة في القاهرة»[15].

(15) *The Saint Paul Globe*, 25/8/1898, p. 4.

خاتمة

كانت أفكار هَنا كوراني التي نافحت عنها في صحافة بيروت والإسكندرية في خلال عام 1892 ومطلع عام 1893، وطرحتها بشكل محكم في كلمتها أمام مؤتمر النساء العالمي، تدور حول المفاهيم «الأنوثوية المثالية» (Ideal womanhood) التي كانت سائدة آنذاك في بريطانيا والعالم الأنكلوساكسوني، خلال حقبة الملكة فيكتوريا؛ فقد تميز العصر الفيكتوري (من عام 1837 إلى عام 1901) بأنه عصر القيم المنزلية، في وقت كانت بريطانيا تشهد مخاضات اجتماعية كبرى نتيجة تحولها إلى «أمة صناعية»، وأصبحت الملكة فيكتوريا برفقة زوجها المحبوب ألبرت، يحيط بها أطفالها الكثر، رمزًا للأنوثة المثالية وللاستقرار الزوجي والفضيلة، حتى وصِفت بأنها «أم الشعب»[1].

من اللافت أن هَنا كوراني عبّرت عن هذه الأفكار بجمل واضحة محدَّدة من قبيل: «مجد المرأة في طهارتها»، أو: «على المرأة أن تفخر بأنوثتها» أو: «لماذا ينبغي على المرأة أن ترغم الرّجل على أن يتنحّى لتقوم بعمله؟» أو: «لا يُجدي أبدًا أن نرغم الرجال والنساء على العمل في الميدان نفسه، لأن ذلك يناقض نظام الطبيعة»، أو: «المساواة بين الجنسين لا تعني المساواة في كمية الإنتاج، بل المساواة في مساهمة كلّ منهما في خير الجنس البشريّ».

هذه الأفكار التي اعتمدتها هَنا كوراني في تلك المرحلة من عمرها لا

(1) Lynn Abrams, «Ideals of Womanhood in Victorian Britain,» BBC, published: 9 August 2001. at: http://www.bbc.co.uk/history/trail/victorian_britain/women_home/ideals_womanhood_01.shtml

يمكن عزلها عمّا كانت تروّج له الكنيسة الإنجيلية خلال القرن التاسع عشر في منابرها التبشيرية المنتشرة على امتداد أكثر من قارة، من ولايات الجنوب الأميركي وصولًا إلى أفريقيا والشرق الأوسط والهند، حيث كانت هذه الكنيسة تعارض بشكل معلن حق المرأة في التصويت، وتدعو إلى تقييد دورها في الحياة العامة، في مقابل التشديد على الحياة الأسرية والانضباط الأخلاقي[2]، أي أن الكنيسة الإنجيلية كانت تروّج للأفكار الفيكتورية «الأنوثوية المثالية» بحذافيرها، علمًا أن هَنا كوراني أكدت في حديثها إلى مجلة **هاربرز بازار** الأميركية على الخلفية الإنجيلية لأسرتها؛ إذ قالت إن والدتها امرأة متعلمة تلقّت علمها في المدارس التبشيرية، وكانت هي وزوجها حبيب كسباني، والد هنا، عضوين فاعِلَين في الكنيسة الإنجيلية المشيخية[3]. والحق أن انتقالة هَنا كوراني الفكرية لم تحدث دفعة واحدة، ولا نتيجة الانبهار بالمجتمع الأميركي، بل أتت بعد اختبار عملي رأت فيه بعينيها، وسمعت بأذنيها، الأطروحات «الجندرية» بنسختها الأولى، في منزل صديقتها ماي رايت سيوول، المعروفة عالميًا بنشاطها في حركة حق المرأة في التصويت، حيث عبّرت في رسائلها[4] عن امتنانها لحصولها على المعارف التي اكتسبتها في منزل صديقتها المثالي، بحسب تعبيرها، وكذلك افتتانها بأفكار هذه السيدة الأميركة المكافحة، حيث وصفتها في إحدى الرسائل بـ «عرّابتي النبيلة الغالية».

هذا الافتتان من هَنا كوراني بشخصية سيوول له ما يبرره؛ إذ كانت الأخيرة مناضلة نسائية مخضرمة، ارتبطت حياتها بسعي دؤوب من أجل إقرار حق المرأة في التصويت والانتخاب في الولايات المتحدة، وسعت طوال حياتها، خصوصًا في مدرسة إنديانا بوليس للبنات، والتي أسستها في عام 1881، لتكريس قيم المساواة التامة بين المرأة والرجل، متجاوزة المناهج التقليدية

(2) للتوسع في هذا الموضوع، يُنظر: Mary Mackintosh, *Damascus and Its People: Sketches of Modern Life in Syria* (London: Seeley, Jackson and Halliday, 1883); Evelyn Brooks Higginbotham, *Righteous Discontent: The Women's Movement in the Black Baptist Church 1880-1920* (Cambridge: Harvard University Press, 1993).

(3) *Harper's Bazaar*, vol. xxvii, no. 17 (28 April 1894), p. 339.

(4) يُنظر: نصوص الرسائل في ملاحق الكتاب.

التي تدرس الفن التشكيلي والموسيقى والتدبير المنزلي للفتيات، إلى الدروس التحضيرية لكليات الدراسات الكلاسيكية، واللغات الحديثة، والعلوم، في جامعة هارفرد ونظيراتها. وممّا يسجَّل لها طرحها على طالباتها برامج للتربية البدنية ونمطًا معاصرًا من الأزياء، ومنع انتعال الكعب العالي، واستبداله بكعب منخفض وعريض[5].

لذلك، يمكن اعتبار ماي سيوول من أوائل المناضلات في الحركة النسوية الليبرالية (Liberal feminism) في الولايات المتحدة والعالم، وهو ما انعكس على هَنا كوراني بشكل كبير، حيث إنها اعتمدت جميع أفكار سيوول بشأن حقوق المساواة التامة مع الرجال، وعلى رأسها حق الانتخاب، بل إنها حثت المرأةَ، في خطاب أمام 600 مستمع في قاعة مدرسة الأحد، على المطالبة بحقوقها الطبيعية، في التعليم والمساواة، منطلقة من فكرة استعداد المرأة لخوض غمار الحياة العامة، على قدم المساواة مع الرجل. ووصل الأمر بها إلى عدم الاكتفاء بالإقرار بحق المرأة في المساواة، بل راحت تحض النساء على أخذ زمام المبادرة للدفاع عن حقوقهن، وعدم الاتكال على الرجال لتحريرهن؛ «فالرجال، كما اشتُهر عنهم، يؤْثرون أنفسهم بالسيادة»، بحسب تعبيرها[6]. كما أنها أجازت لنفسها، بأفكارها الجديدة، التطرق إلى موضوعات ثقافية ذات شحنة تنويرية، فأشادت بدور «العمل المنتج»، وبخست الميل إلى البطالة والكسل، وحثت على استشعار «المسؤولية العامة»، وحرضت النخب على الانخراط في الشأن العام. وهذا ما يعكس نضج خطابها النهضوي، الذي يرى في تحرير المرأة تفصيلًا من تفصيلات النهضة الشاملة.

---

(5) Ray E. Boomhower, *Fighting for Equality: A Life of May Wright Sewall* (Indianapolis: Indiana Historical Society Press, 2007).

(6) هَنا كسباني كوراني، **التمدن الحديث وتأثيره في الشرق** (بيروت: مطبعة المعارف، 1896)، (النص في ملاحق الكتاب).

ملاحق الرسائل والخطب والصور

الملحق (1)
الرسائل

يضم هذا الملحق مجموعة من الرسائل التي تتصل بدراستنا هذه، وهي مرتّبة زمنيًا من الأقدم إلى الأحدث:

أولًا: رسالة زينب فواز ردًا على مقالة لهنا كوراني، منشورة في جريدة **النيل** (القاهرة)، العدد 151، 14/ 7/ 1892.

ثانيًا: رسالتان إلى السيدة زينب فواز ردًّا على رسالتين بعثت بهما إلى بيرثا هونوريه بالمر، رئيسة المؤتمر النسائي العالمي. وقد نشرت فواز ردّها الأول على دعوة السيدة بالمر، ثم رد بالمر مترجمًا إلى العربية، ثم ردّها الثاني على رد بالمر في جريدة **النيل** القاهرية أولًا، ثم في كتابها **الرسائل الزينبية**. ومن هذه الرسائل نفهم أن بالمر طلبت منها الحضور إلى شيكاغو للمشاركة في معرض الأشغال النسوية المعقود على هامش المؤتمر، فاقترحت أن ترسل كتابها **حول تراجم النساء «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور»** وأنها اعتذرت بسبب موانع شرعية إسلامية شرحتها في ردها الثاني، وهو ما أشارت إليه بالمر في تقديمها للكتاب التأريخي لوقائع المؤتمر الذي أشرنا إليه في أكثر من موضع في هذا الكتاب.

ثالثًا: رسالتان من السيدة بيرثا هونوريه بالمر إلى خليل سركيس المنشورتان في جريدة **لسان الحال**، العدد 1434، في 15/ 8/ 1892.

رابعًا: نص رسالة مسؤولة اللجنة الصحافية أنطوانيت واكان للكاتبة والناشطة أستير أزهري، تدعوها إلى الحضور إلى شيكاغو كعضو في اللجنة. هذه الرسالة نُشرت مترجمة إلى العربية في جريدة **لسان الحال** البيروتية أولًا، ثم في مجلة **الفتاة**.

خامسًا: رسائل هَنا كوراني السبع، فالرسالتان الأولى والثانية أرسلتهما إلى صديقتها هند نوفل، رئيسة تحرير مجلة **الفتاة**، ونشرتهما الأخيرة بنصيهما في المجلة، وهو ما فاجأ هَنا كوراني، كما أوضحت في رسالتها الثانية معتذرة عن سرعة الكتابة. أمّا رسائلها الخمس الباقية، فهي موجهة إلى صديقتها الأميركية ماي رايت سيوول، المصلحة الأميركية المعروفة.

في هذه الرسائل الخمس المكتوبة بلغة إنكليزية جيدة، والمحفوظة في مكتبة إنديانابوليس الأميركية ضمن مجموعة أوراق ماي سيوول، نقرأ بعض التفصيلات الثمينة خلال الأشهر الأولى من إقامتها في الولايات المتحدة بعد انتهاء المعرض، وما حصل معها على صعيد ترتيب أمر إلقائها محاضرات عن الشرق، ومشاركتها في بعض النشاطات النسائية في غير ولاية أميركية، ونطالع أسماء من نخبة المجتمع الأميركي في الولايات المختلفة التي زارتها، وأخبرت عنها صديقتها سيوول التي كانت، كما يبدو، تعرفها، أو هي التي أوصت بأن تتصل هَنا كوراني بها. ولم نقف على ترجمة لهذه الشخصيات في المصادر المتوافرة بين أيدينا، مثل برايان الذي وصفته هَنا كوراني بأنه رئيس المجلس، وربما هو نفسه الشخص الذي أسمته رئيس الصالون الأدبي في سينسيناتي، كما أنها تطرقت إلى ذكر سيدة مجتمع في المدينة نفسها تدعى ثروول لم نعرف من هي بالضبط، وغير ذلك من أسماء.

* * *

ردًّا على هَنا كوراني
رسالة زينب فواز المنشورة في جريدة النيل
القاهرة، العدد 151، 18 ذي الحجة 1309 هـ - 14 تموز/ يوليو 1892م

قالت جريدة **لبنان** الغرّاء تحت عنوان «المرأة والسياسة» لحضرة الأديبة الفاضلة هَنا كوراني: فهي وذمة الحق غاية في المبنى، وأعجوبة في رقة المعنى، إلا أنها جارت في حكمها، وشددت النكير على بنات جنسها، وضربت عليهن الحجر المنزلي، وعملت على منعهن من التدخل في كل الأمور الخارجية المختصة بأعمال الرجال من مثل قول حضرتها: «إن المرأة لجهلها شرفَ

مقامها تظن أن مساواتها بالرجل لا تتم إلا بعملها لما يعمله، وإن المرأة لا تقدر على عمل خارجي مع أداء واجبات ما يلزم لخدمة الزوج والأولاد». وقول حضرتها: في هذه الخطة – أي الخطة المنزلية «طبيعية للنساء، ولا يجوز لهن أن يتخطينها لأن هذه سُنة قد سنَّها الله لهن، ولو تجاوزنها لَتغيَّر نظام الكون، وتبدلت نواميس الطبيعة، ولو حاول الإنسان إبدالها لخاب أملًا، وفشل عملًا، ولا يمكن إبدالها وتغيُّر القصد فيها إلا بالهلاك العاجل أو الآجل». وقول حضرتها: «لم يفقهوا بعد كالواجب ما هي المرأة، وما هو الرجل، بل تراهم يحاولون أن يساووا بينهما بمجرد الأعمال، وهذا بهتان ووبال على الجنس عميم، لا بد أن ينتج منه ويل شديد وبلاء جسيم؛ لأن الطبيعة تجازي من يتعدى نظامها بالحزن والألم، إلى غير ذلك من مثل هذه الأقوال».

ووجَّهت سهام اللوم على نساء إنكلترا كيف أنهن طلبن التداخل في الأمور السياسية، وهو الطلب الذي لا يخفى على القراء الكرام المتضمن ما كان من أمر لائحة الانتخاب المختصة بطلب النساء، وكيف أبطلها المستر غلادستون في مجلس نواب إنكلترا، فخطَّأتهن حضرة الفاضلة ووافقها على ذلك حضرة الأديب الفاضل صاحب جريدة **لسان الحال**؛ وإني لأبدي ما جال بفكري من هذا القبيل فأقول:

دواؤك فيك وما تبصر وداؤك منك وما تشعر

تأمل أيها العاقل كيف أن الإنسان صغير بالجرم كبير في العالم، ضعيف في نفس الأمر، قوي بالفعل يُقدِم على الصعاب يذللها بقوة ذكائه، ويهجم على الأمور بِهِمَّة فتنقاد له طوع بنانه جميع الموجودات بحسن تدبيره وقوة حزمه، لا يثني عزمه شيء متى ثبَّت قدمه في طلب ما يرغب الاستحصال عليه والوصول إليه، ولولا الحزم لما ازدهى العمران كما هو الآن، ولا سطعت أنوار العلم والعرفان، ولا خفقت أعلام التقدم في هذا العصر، ولا استحصلت أوروبا على قصورها الشاهقة وأبنيتها الفاخرة وسككها الحديدية وأسلاكها البرقية، ولا خرجت من وراء ضباب توحُّشها الأصلي إلا بالحزم والإقدام، ولا كثرت الاختراعات والاكتشافات إلا بعد الخوض في عباب الأقدار وتجشم الأخطار،

ولولا ثبات عزم الإنسان لأرجعته عن مقصوده أقلّ عثرة، وأوقفته في طريق بلوغه إلى الغاية أدنى صدمة، ولا كان يتسنى له أن يخرج من ربقة التوحُّش إلى ميدان التمدن، ولو كانت كل عثرة في طريقه يحسبها خيبة، وانهزم منها متقهقرًا يجر ذيول الخجل وبعض أنامل الخيبة والفشل، لما عمَّر الكون، ولا ظهر شيء ممّا تراه اليوم من هذه الموجودات التي تدهش العقول وتحير الأفكار، وببركة الإقدام فُتحت الفتوحات وعُمرت البلدان.

وما من أمة فشا فيها داء الكسل وسرت إليها علة الخمول إلا دمرتها وهدمت أركان عزها ودكَّت حصون تمدنها، وممّا يؤيد لنا ذلك هو ما ظهر لنا من تقدّم الغرب على الشرق في هذا العصر حينما عولج أهله، وشُفي جسمهم من داء الكسل والخمول؛ فازدهى عصرهم على جميع العصور وفاق كافة الدهور، إلى حد أنه صار النساء فيه يبارين الرجال ويشاركنهم في الأعمال، وحيث قد أجمع السواد الأعظم منهم على أن الرجل والمرأة متساويان بالمنزلة العقلية، وعضوان في جسم الهيئة الاجتماعية لا غنية لأحدهما عن الآخر، فما المانع إذن من اشتراك المرأة في أعمال الرجال، وتعاطيها الأشغال في الدوائر السياسية وغيرها متى كانت جديرة لأن تؤدي ما نُدبت إليه، وإلا فما فائدة تعلُّم المرأة الغربية جميع العلوم التي يتعلمها الرجال من فلسفة وحكمة ورياضة وهندسة، وتدرس القوانين السياسية إذا كانت لم تعمل بمقتضاها وتخدم النوع البشري، وتعد من أعضاء الهيئة الرئيسية؛ لأنها ما خلقت لكيلا تخرج عن دائرتها المنزلية، وأن لا تتدخل فيما يختص بالأعمال الخارجية سوى ما يلزم من تدبير المنزل وتربية الأولاد والطبخ والعجن وما أشبه ذلك فقط – كما تعتقد حضرة الفاضلة.

لا لعمري، بل عوائدهن تسمح لهن بأن يكتسبن كل فن من الفنون ويعملن به، وأمّا تدبير المنزل وتربية الأولاد فإنها مَلَكة في النساء طبيعية غريزية، لا يلزم لها درس ولا تعليم ولا سَن قوانين ولا قواعد، بل من أراد أن يعرف قوانينها يأخذها عنهن بدون أن يرى كبير عناء، سواء كن في حالة التوحُّش أم لا، حتى إن المتوحشات من النساء يدبِّرن منزلهن، ويربِّين أولادهن بقدر الإمكان.

وأمّا قول حضرتها: «إن تجاوزنها لَتغيَّر نظام الكون وتبدلت نواميس الطبيعة». نعم، إن للوجود طبيعة لا يمكن إبدالها، ولله في خلقه نواميس لا يتسنى تغييرها، وهذا التغيير ليس باستخدام المرأة بأشغال الرجال أو باستخدام الرجال بأشغال النساء كما تتوهم حضرتها؛ لأن ذلك ليس من المستحيل الذي لا يتأتَّى للإنسان أن يجريَه، ولا من الأمور التي يحصل منها ما يكدر راحة النوع الإنساني كما توهمت من استحالة ذلك بقولها: «كما لا يتأتَّى للإنسان أن يُحوِّل من البخار ذهبًا أو حديدًا، كذلك لا يتسنى للمرأة أن تخرج من خطتها المنزلية».

والحال أننا لم نرَ شريعة من الشرائع الإلهية، أو قانونًا من القوانين الدينية قضى بمنع المرأة أن تتداخل في أشغال الرجال، وليس للطبيعة دخل في ذلك، وما أظن بأن الشمس تحوَّلت غربًا، ولا ماء البحار صار عذبًا، ولكن المرأة إنسان كالرجل ذات عقل كامل وفكر ثاقب وأعضاء متساوية، تُقدِّر الأمور حق قدرها، وتفصل بين الزمان والمكان، وكم من امرأة حكمت على الرجال وساست الأمور، ورتبت الأحكام وجندت الجنود، وخاضت المعامع ومارست الحروب، كالملكات اللواتي سُسْنَ ممالكهن أحسن سياسة! كما أنبأنا التاريخ عمن تقدمنا من قبلُ منهن، مثل كليوباترا والملكة زنوبيا ملكة تدمر، وإليصابات وغيرهن ممن سلف، وما رأينا من تداخلهن في شئون الرجال ما أخلَّ في نظام الطبيعة، أو نقص تدبير منازلهن، بل إن النظام العائلي ما زال باقيًا على ما كان عليه هو، وكأني بها تعترض عليَّ بقولها: إن هؤلاء ملكات وقادرات على تأدية وظائفهن المنزلية والإدارية، فأقول: نعم، ولقد أنبأنا التاريخ أيضًا عن نساء العرب كيف شاركن الرجال بالأعمال والحروب، وتكبدن الأخطار ومعاناة الشدائد والأهوال مع أنهن كن زوجات وأمهات، وكم درج من عشهن رجال وأي رجال؛ رجال ملكوا الدنيا بأجمعها، ولم تُخِلَّ بنظامها زوجاتهم وأمهاتهم، بل كنّ يساعدنهم على إعمارها وحسن نظامها.

ومن الشواهد أيضًا في عصرنا هذا أن الرجل لو مرَّ في شوارع أي مدينة كانت من المدن الشهيرة، وجد مخازنها غاصة بالنساء الأوروبيات يتعاطين الأعمال التجارية وحسابها والأشغال اليدوية وإتقانها على ما ينبغي، وكلهن

زوجات وأمهات تدبرن أمورهن المنزلية، وأشغالهن الخارجية على أحسن نظام، ثم إذا نظرنا إلى النساء الفقيرات عندنا في مصر وإسكندرية وجميع الأنحاء، نجد أغلبهن يتعاطين الأشغال كالرجال، فمنهن تاجرات وصانعات، ومنهم من يشتغلن مع الفعلة في البناء، وغير ذلك ممّا يختص بأمر المعاش المطلوب من الرجال؛ فنجد العائلة من رجل وامرأة وأولاد، فالرجل يتوجه إلى مهنته، والمرأة تتوجه إلى حرفتها، وإن كانت تاجرة إلى حانوتها بعد أن تنظر في صالح منزلها، وما يلزم أولادها من طبخ وعجن وغسيل وما أشبه ذلك؛ فنجد الأسواق غاصة بالنساء يبارين الرجال بالمعاملات والأخذ والعطاء وغيره من هذا القبيل، ثم إننا إذا حولنا النظر إلى جهة الأرياف نجد الغيطان والحقول عامرة بالنساء بعدد الرجال وأكثر، وكلهن يساعدن أزواجهن وأبناءهن، وجرين الأعمال كالرجال من زرع وقلع وحصد، وغير ذلك ممّا يختص بأشغال الزراعة التي هي حياة العالم، وهؤلاء أيضًا لهن أزواج وأولاد، فالعاقل ينظر في أمور هذه الدنيا يجد الجنسين متساويين، وإنما الإهمال أوجب تأخير المرأة ليس إلا.

وإني لا أُخطِّئ نساء إنكلترا بتداخلهن في أمور السياسة وطلبهن حق الانتخاب، بل أقول: نعم، لهن حق أن يطلبن هذه الخطة ما دُمن قادرات على أداء واجبها كما يؤديه الرجال.

ومن المعلوم أن تعاطيَ أمور السياسة لا يكون إلا بعد درس القوانين السياسية، والاجتهاد في أخذ العلوم الإدارية، وغيرها مما يلزم لهذا المركز الخطير. والمرأة في الغرب لا فرق بينها وبين الرجل في درس العلوم وتعليم كل ما يلزم للرجل من العلوم السياسية والتجارية، وغير ذلك ممّا يدور عليه محور العالم الإنساني، فَلِمَ لا تطلب الاشتغال بالسياسة كاشتغالها بالتجارة والصناعة وغيرها ممّا يلزم الإنسان في هذه الحياة الدنيا؟! وليس إبطال اللائحة التي قدّمتها متضمنة ذلك الطلب أمرًا يوجب عليهن اللوم والتعنيف، لا لعمري؛ لأن الإنسان لا بد وأن يصادف في سبيل إدراك المقصود موانعَ تصده عن الغرض، ولا لوم عليه فيها ولا تثريب، وعليَّ أن أسعى وليس عليَّ إدراك النجاح، ولولا معارضة الذين بيدهم مقاليد الأمور كالمستر غلادستون وغيره،

لما كانت صادفت لائحة النساء ما صادفته من المنع، ولم يكن إبطالها عن سبب يشير إلى نسبة العجز إليهن أو للتحذر من العقبى، لا لعمري، بل نظروا لها بعين الحقد، وظنوا أنها من باب المنازعة في الحقوق؛ فكثر اللغط وزاد القيل والقال، واستفحل الأمر واشتدت الأزمة وكان ما كان.

وهذا ليس بأول أمر صادف معارضة، بل هي عادة لله في خلقه وسُنة الزمان في كل أمر بُدئ به، كما لا يخفى على كل من اطلع على تواريخ الأمم، وحيث إن تداخل النساء في السياسة هو أول أحدوثة، فلا بد أن يستعظمه كل من لا يعرف كنه المسألة [و] لا سيما إذا كان من الحاسدين، وأما النساء اللواتي استحسنَّ رفض هذه اللائحة، فهن - ولا مؤاخذة - أحق باللوم من غيرهن؛ لأنهن اخترن العزلة والكسل، وفضَّلن البطالة على العمل، ورضين بالفخفخة وجر الذيول على بساط الخمول، ولو اجتهدن كأخواتهن لَكُنَّ فعلن ما تقتضيه واجباتهن، وَكُنَّ أبدين ما عندهن من الحزم والرغبة في خدمة النوع والوطن، وهو الأليق بهن وإن لم يصادف نجاحًا، وعلى كل حال فإن مثابرة المرأة على طلب التقدم حتى تنال حقوقها لا يعد ذنبًا عليها، بل يُفتخر بها مدى الدهر، وتكون مذكورة بلسان الشكر على فتحها باب النجاح لأخواتها.



مراسلات بيرثا بالمر وزينب فواز

1- رسالة زينب فواز لبيرثا هونوريه بالمر، رئيسة المؤتمر النسائي، نُشرت في جريدة **النيل** (القاهرة)، العدد 169 (93 آب/أغسطس 1892م/محرم 1310هـ)، في زينب فواز، **الرسائل الزينبية** (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014)، ص 41-42.

في 30 [تموز] يوليو 1892 إلى واشنغطون أميركا

إلى حضرة الأديبة الفاضلة السيدة بيرثا هونور بالمر

رئيسة قسم النساء في معرض شيكاغو

من بعد إهدائكم أزكى التحيات أبدي أنني هزتني أريحية الشوق إلى مساعدة القسم النسائي، الذي صار إعداده لعرض مصنوعات النساء في معرض شيكاغو سنة 1893، ولعلمي أن التقدم الأميركاني والأوروباوي لم يتركا لنا، نحن الشرقيات، شيئًا من تقدُّم الصناعة التي يمكن للنساء أن يعلمنها، ونظرت في التاريخ العام فلم أرَ أحدًا أَلَّف تاريخًا خاصًا باللغة العربية يحتوي على ذكر شهيرات النساء وأدبهن وتقدمهن في السنين الغابرة والحاضرة، ولم أرَ هدية تُرفع للمعرض النسائي من مثلنا، نحن الشرقيات، أجدر من هذا الكتاب الذي يحتوي على تراجم النساء وطبقاتهن في الهيئة الاجتماعية، فعقدت العزم واستعلمت الحزم وأَلَّفت كتابًا في هذا الباب، فجاء بحمده تعالى على طبق المرام، وجمعت فيه من تراجم شهيرات العرب ومتقدمات الإفرنج ومَلِكات الشرق والغرب، من كل أديبة فاضلة وملكة عاقلة وفارسة وشاعرة وخطيبة وثائرة؛ فرأيت أن أقدم نسخة منه لأجل حصرها ضمن معروضات القسم النسائي في المعرض، وبما أنني لا أعلم كيفية تقديم المعروضات بأي صفة تكون، ولم أَطَّلع على تفصيل ذلك في الجرائد العربية، فأرجو أن تفيدوني عن كيفية إرسال الكتاب المنوَّه عنه حتى أرسله مع مزيد الشكر والممنونية، ولو كانت عوائدنا، نحن النساء المسلمات، تسمح لنا بالحضور في مثل هذه الاجتماعات، لكنت سعيت بنفسي لتقديمه، وحضرت المعرض مع من يحضرون فيه من النساء، ولكن إطاعةً لأمر الدين لا يمكنني ذلك؛ وعلى هذا فإني أقدم لكم مزيد الشكر المقرون بالممنونية على حسن مساعيكم في تقدم النساء أمام الهيئة الاجتماعية. وإذا تفضلتم عليَّ بالإفادة باسمي زينب فواز عن يد شقيقي محمد أفندي علي فواز الأفوكاتو بمصر، وأرجوكم العفو عن قصوري حيث كتبت تحريري هذا باللسان العربي، وإني أعلم أنه يسهل عليكم معرفة أي لسان من أي لغة كانت.

* * *

2- رد بيرثا بالمر على رسالة زينب فواز نشر في جريدة **النيل**، العدد 229 (16 تشرين الأول/ أكتوبر 1892/ 24 ربيع أول 1310)، في: فواز، **الرسائل الزينبية**، ص 71.

شيكاغو في: 20 أيلول (سبتمبر) سنة 1892

حضرة السيدة الفاضلة زينب فواز

أيتها الست العزيزة، وصلني كتابك في 30 [تموز] يوليو سنة 1892، وأنا مسرورة كل السرور بقبول هديتك اللطيفة لمعرض النساء، وهو الكتاب الذي كتبتِه عن أحوال النساء، ويمكنك إرساله عندما تشائين تحت عنواني، وأنا أُسرُّ بأن يفسح له مكان في مكتبة النساء، وأؤَمِّل منكِ أن تكتبي عن وصول مكتوبي هذا، وأُسرُّ جدًا إذا كنتِ تخبرينني عن السبب الذي يمنعك من المجيء إلى المعرض في ديانتكم الإسلامية، هذا وإنني أشكرك على الفائدة التي تكرمتِ بها، وأنا محبتك.

***

رد زينب فواز على رسالة بيرثا هونوريه بالمر نُشر في جريدة **النيل** العدد 247 (6 تشرين الثاني/نوفمبر 1892 - 15 ربيع الثاني 1310هـ)، في: فواز، **الرسائل الزينبية**، ص 81-84.

إلى واشنغطون

إلى حضرة الأديبة الفاضلة السيدة بيرثا هونور بالمر

رئيسة قسم النساء في معرض شيكاغو

قد وصلني كتابك العزيز المؤرخ 20 [أيلول] سبتمبر وتلوته، وأنا في غاية السرور والممنونية، وشكرت لك إنسانيتك المزدانة بحلية الآداب التي أتت من معدنها، وزادني سرورًا قبولك لهديتي، والذي ضاعف مسراتي وقلدني قلائد الممنونية هو سؤالك عن السبب الذي يمنعني من الحضور إلى المعرض في ديانتنا الإسلامية، وها أنا أشرحه لك شرحًا موجزًا، ولي في كل جارحةٍ لسان ناطق بالثناء على همتك العالية.

ولأبدأ أولًا بذكر العادات الإسلامية التي نشأنا عليها، ونحن نجدها من الفروض الواجبة، ونتوارثها فنتلقاها بغاية الانشراح، حتى إن المرأة منا لو أُجبرت على كشف وجهها الممنوع عندنا، لوجدته من أصعب الأمور، مع أن كشف

الوجه واليدين ليس محرَّمًا على قول فريق عظيم من العلماء، ولكن منعته العادة قطعيًّا، وهي التي توارثناها؛ إذ إن البنت منا لا تتجاوز الثانية عشرة من سنها إلا وهي داخل الحجاب، والولد متى بلغ الحلم لا يحل له قطعًا النظر إلى النساء.

وإن من عاداتنا المحترمة عندنا عدم حضور المرأة في المجتمعات العامة التي يجتمع إليها الرجال، كالقهاوي والملاعب والتياترات، إلا من وراء حجاب، والبالوات والكلوبات وكل ما كان كذلك، ولكن للنساء محافل خصوصية لا تختص إلا بهن، ليس للرجال فيها محل، حتى إن الرجل لا يجوز له أن يدخل دائرة النساء من منزله ما دُمْنَ فيها إلا بالإذن عند الحاجة؛ حتى لا يرى إحداهن.

وهذه المحافل قد تكون للأفراح والدعوات العامة، والأحوال الاستثنائية كالمآتم وما أشبه، وأكتفي بشرح البعض منها مثلًا لغيرها، وهو أنه إذا صار عندنا الاهتمام بفرحٍ لزفاف، خصوصًا بين أحد الشبان وإحدى الآنسات، تجتمع النساء في دائرة الحرم من داخل المنزل، ويجتمع الرجال في الخارج كي لا يختلط الجنسان، وإذا أرادت النساء أن يسمعن ما عند الرجال من آلات الطرب، يجلسن في النوافذ المشرفة على المحل؛ بحيث إنهن يرين ولا يراهن أحد من الخارج؛ وذلك بسبب الأستار المسدولة على تلك النوافذ، والنوافذ مصنوعة من الخشب، شرقية الصنع، مركبة تركيبًا محكمًا، وفائدتها أن تحجب ما وراءها فيرى الذي في داخلها من كان خارجًا عنها ولا عكس، وهي بعض عادات الشرق المختصة بالحجاب، ولها فوائد أخرى لمنع الحر والبرد، ولا أعلم إن كانت مستعلمة عندكم على هذه الصفة أم لا؟

وتتولى النساء أمر العروس من كافة ما يلزم لها من أمرَي الزينة والزفاف، وضرب الآلات والترنم بالألحان المطربة، كما يتولى الرجال شأن العريس ويأتون به، ويتم الزفاف وكلٌّ من الجنسَين المجتمِعَين لا يرى الآخر، وهكذا سائر الاحتفالات المعتادة.

والحجاب عندنا مأمور به في الدين بنصوص الكتاب الكريم، كقوله تعالى:

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلخ الآية، [النور:31] قال بعض العلماء: المراد بها مواضع الزينة لا الملابس والحلي؛ ولذلك وجب علينا الستر والحجاب.

وأما عدم الإباحة لنا بالسفر، فعلى ما يُفهم من أقوال بعض العلماء والأعلام، لأنَّ عندنا في شريعتنا الغرّاء لا يباح مس جسم المرأة لرجل أجنبي عنها، قالوا وهذا إذا كانت شابة، ولو حل النظر فيها في مثل الوجه مثلًا.

وعلى رأي من قال: بأنه ليس عورة فإنه يحل النظر إليه دون الشعر، ولكن لا يحل مسه إلا إذا كان لذي محرم، بخلاف العجوز الشوهاء، فإنه يجوز للأجنبي أن يمسها ويسافر بها أيضًا، أما الشابة فلا يحل لها السفر إلا بصحبة أحد ذوي قُرباها إن لم يكن الزوج، وأعني بذوي قرباها ذوي محرم منها؛ الذين لا يحل لها التزوج بهم، كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ إلخ الآية [النساء:23]، فإذا سافرت المرأة مسافة ثلاثة أيام فأكثر يلزم أن يكون معها أحد من هؤلاء المذكورين في الآية الشريفة، كالأب والابن والأخ والعم والخال ...إلخ، أو الزوج؛ وذلك لأنه إذا مس جسمها في وقت الركوب والنزول أو غير ذلك لا يكون محرمًا، وهؤلاء بخلاف غيرهم من ذوي القربى الذين لا يحرم الزواج بينها وبينهم، كابن العم وابن الخال وابن العمة وابن الخالة ...إلخ، فإنها تحتجب عنهم أيضًا؛ فلذلك لا تسافر مع أحدهم من حيث المسألة مبنية على المس، ومتى جاز المس جاز السفر؛ فهذا الذي يمنعني من الحضور إلى المعرض من وجه، والوجه الآخر هو ما تقدَّم من عدم تعودنا على الخروج إلى المجتمعات العامة؛ إذ إن المرأة منا لا يجوز لها الخروج إلى خارج المنزل إلا مؤتزرة بإزار يسترها من الفِرق إلى القدم، وهو من الحرير الأسود نسميه عندنا الحبرة، وبرقع يستر وجهها حتى لا تبين منه إلا العيون، وإذا مرت إحدانا على قهوة، أو مجتمع مع أنها مؤتزرة لا يظهر منها شيء،

يستولي عليها الخجل حتى تكاد لا ترى أحدًا ولا الطريق، وهذا كله ناشئ عن التمرن من الصغر على حسب العادة المألوفة.

والشروح المختصة بأمر الحجاب كثيرة والعادات جمة، قد اكتفيت منها بهذا القليل. وأُخبرك أيتها العزيزة الفاضلة بأنني ألّفت رواية تشخيصية من حوادث عصرنا الحالي، وأشخاصها من أعز أصدقائي، فإن سمحتِ لي أن أرسلها لك لتأمري بترجمتها وتشخيصها في المعرض، تصيريني ممنونة بقبولها وأني رهينة أوامرك، ويمكن إرسالها قبل إرسال الكتاب؛ لأنني فرغت من تأليفها، فإنها صغيرة جدًا بالنسبة للكتاب، فاقبلي مني سلامًا عاطرًا صادرًا عن فؤاد شاكر، وأرجو من عواطفك العلية أيتها الفاضلة أن تشرفيني بكل ما يلزم الاستخبار عنه من عاداتنا الشرقية، فأفيدك منها بكل ما أقدر عليه، مع شكري لك وممنونيتي منك، ودُمت لمُحبتك.

* * *

رسالتا بيرثا أونوريه بالمر إلى مدير جريدة لسان الحال خليل سركيس

العدد 1434

بيروت، الاثنين في 15 آب/ أغسطس غربي، و3 آب/ أغسطس شرقي 1892 م – 22 محرم 1310هـ

شيكاغو، إلينوي في 30 تموز/ يوليو 1892

حضرة مدير جريدة لسان الحال

إنني شاكرة كثيرًا لاجتهادكم وسعيكم وراء ترغيب النساء السوريات في مشروعنا، وقد تأكدت من الرسائل العديدة الواردة عليّ والتي لا تزال ترد منهن أنكم نجحتم في سعيكم نجاحًا غير قليل الأهمية.

ومن طيه أرسل لكم قايمة [قائمة] تتضمن الأخبار الإفادات الأخيرة تذيعونها في جريدتكم لفائدة الراغبات السائلات.

وقد حصلت على رسائل كثيرة من نساء سوريات، كل منهن تعرض

أنواعًا من المعروضات السورية، ومن رأيي أنه يناسبنا الحصول على تلك المعروضات جميعًا بناءًا [بناءً] على أن تتحد الطالبات جميعهن في شركة واحدة تحت إدارة واحدة، فهل لكم أن تتكرموا باقتراح ذلك على حضراتهن في جريدتكم؟ وأكرر الشكر لمساعدتكم الثمينة حفظكم الله.

بيرثا هونوري بالمر

حضرة المدير

وصلني كتابكم الثاني، وها أنا أجيب على جميع أسئلتكم بسرور عظيم، مؤملة من حضرتكم أن تنشروا جوابي هذا في جريدتكم لسان الحال؛ فجوابًا على سؤالكم الأول أقول: إذا أرسلت نساء سوريا أشغال الإبرة وأمتعة غيرها ليجري عرضها يمكن بيعها وإرسال المتحصل من ثمنها للنساء اللواتي صنعتها، ولا بد عند ذلك من وضع مبلغ قليل في المائة للمعرض الحاصل بالبيع، وربما كان المطلوب لا يتجاوز 10 ٪.

ثانيًا- كل ما يرسَل ولا يباع يعاد لأصحابه بعد نهاية المعرض.

ثالثًا- أرسل لكم مع كتابي هذا بعض لوائح تبين لكم بأوفر وضوح تفاصيل معروضاتنا، فإذا أرسلت النساء السوريات شيئًا نضعه جميعًا في بناية قسم النساء، ولا نوزعه في أقسام المعرض المختلفة.

رابعًا- أقترح أن تجمع نساء سوريا مجموعة صغيرة متقنة من أشغال النساء، ثم يرسلن إحداهن تتولى أمر ما يرسلنه وتحضر البيع.

ولا ريب عندي أن نفقات سفرها إلى هنا تحصل من البيع الذي يكون كثيرًا، ولكن لا بد للجنة النساء السوريات المذكورة من سد نفقاتها حتى يتم بيع البضائع، وتلك النفقات لا تكون كثيرة لأن إدارة قسم النساء في المعرض ستنشئ مكان منامة تنزل فيه النساء ولا تدفع المرأة الواحدة عن كل يوم أكثر من 40 سنتيمًا.

وتتناول الطعام في المآكل الكثيرة الكائنة ضمن المعرض وعلى مقربة منه. وقد ورد علي رسائل عديدة بشأن المعرض من عدة نساء سوريات، ولا أرى سببًا يمنع اتفاقهن سوية فيحصلن على غاية مهمة ونتيجة حسنة.

ثم إن الآنسة أنيسة صيبعة من طرابلس الشام بعثت إلي برسائل مهمة عن إمكان حصول هذا الذي أرتئيه، ولذلك أقترح أن يتم تعيينها وفدًا من قِبل لجنة النساء السوريات تتولى أمر ما يرسلنه، هذا إذا جمعت الدراهم الكافية.

وهي سبقت فأرسلت إلي كثيرًا من أنموذجات الأشغال التي تقوم بها النساء السوريات، وكتبت إليها مطولًا وبينت ما هي الأشغال التي تصادف بيعًا سريعًا في المعرض.

أمّا السوريات اللواتي أخذت منهن الرسائل، فهن: العقيلة سلمى عرمان، والآنسة أستير أزهري، وعقيلة كوراني من بيروت. وأَولى بهن أن يتخابرن سوية حتى لا ترسل كل منهن نفس ما ترسله الأخرى، فتتلاشى الفائدة ولا تحصل الغاية المطلوبة.

وأكرر شكري لكم على العناية التي تهتمون بها في مساعدتنا، راجية أن يكون لسورية معرض جميل.

بيرثا هونوري بالمر

* * *

رسالة السيدة أنطوانيت واكان لأستير أزهري نُشرت في جريدة **لسان الحال**، العدد 1458 (الاثنين 7 تشرين الثاني/نوفمبر غربي، و26 تشرين الأول/أكتوبر شرقي 1892).

شيكاغو 17 تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1892

حضرة الآنسة العزيزة أستير أزهري

إن لجنة مؤتمر الجرائد اليومية النسائية من مؤتمر المساعدة النسائية الذي سوف يُعقد في مدينة شيكاغو أثناء المعرض الكولمبي العظيم ترى أن يصير تمثيل آثار النساء القلمية في الصحف من عموم العالم.

وقبل ترتيب اللائحة التي سوف تتضمن الخطب من كاتبات واسعات الشهرة، مع الاعتناء التام ببيان تناسق المواضع المرتبة، بشأن ما قامت به النساء في هذا الفرع القلمي وغيره من أسباب الأهمية والفائدة، قد وجد من المرغوب الحصول على آراء من أمثال حضرات الكاتبات المومأ إليهن المأمول أن يصير تمثيلهن في هذه المؤتمرات. فسعيًا وراء إدراك هذه النتيجة تقرر انتخاب لجنة مشورة مؤلفة من مئة كاتبة شهيرة.

ولمّا كان قد تقرر لدى هيئة المؤتمر اختيارك وانتخابك عضوًا لهذه اللجنة عن البلاد السورية، جئت أسألك ولي ثقة عظيمة بك أن تبعثي إلينا بما ترتئيه وممّا تجدينه مناسبًا من المواضيع الخليقة بالبحث والنظر، وأن تتكرمي أيضًا بإرسال أسماء الأشخاص الذين تجدين فيهم أهلية لتقديم هذه المواضيع للمؤتمر.

ولعلك تتلطفين بإرسال أية إفادة بشأن الكاتبات، مما تصل إليه مقدرتك ومعارفك، وبوجه خاص نرغب إليك التكرم بالجواب العاجل.

صديقتك المخلصة

أنطوانيت واكان

* * *

رسالة هَنا كوراني الأولى إلى صديقتها هند نوفل منشورة في مجلة **الفتاة**، السنة 1، ج 9 (1 آب/ أغسطس 1893م – 28 محرم 1310هـ).

حضرة السيدة الفاضلة هند نوفل أعزّها الباري

صفحًا يا معدن المكارم على قصور لم ينشأ من فتور أو إهمال، بل هي الأيام وتراكم أشغالها وتزاحم واجباتها حتى لم تدع فرصة لي إلى مخاطبة شخصك اللطيف، ومراسلة جريدتك «الفتاة» الحسناء التي لا شك في أنها جارية على قدم الترقي والنجاح، رافعة بيدها البيضاء علم نور المعرفة، ليخفق في جو شرقنا الصافي مبددًا ظلمات الضلال ودجى الأوهام.

أجل، إني بشوق شديد لمشاهدة «الفتاة» التي حُجب عني جمالها الأدبي منذ قدومي إلى هذه الديار، ولعل ذلك لعدم معرفة حضرتك بعنواني هنا، ولهذا أسالك أن تجري عليَّ بجميع أعدادها كي أعرضها مع سائر جرائد النسائية وأفاخر بما لحضرتك من الباع الطولى في حلبة الأدب وصناعة التحرير، وأتيه عجبًا بما هي عليه من جمال الفضل وكمال العرفان، وأري الغربيين بأن في شرقنا من الأديبات الفاضلات ما يفقن عليهن عرفًا وإقدامًا، حسبي برهانًا مثالك الشريف ومآثرك الغراء.

إن النساء في هذه الديار في الدرجة الأولى من التقدم، فأبواب العمل وأسباب الترقي مفتوحة لديهن، وما عليهن سوى ولوجها لبلوغ المجد والعلاء، فهن السعيدات من بنات جنسهن، ولهن المقام الأول في الهيئة الاجتماعية يعدهن كيف شئن، مع هذا تريهن غير مقتنعات بما قسم المولى لهن. بل دأبهن منازعة الرجل على إدارة أمور السياسة، وتولّي المناصب الإدارية، وقد كدن يفزن بالمرغوب وتتحقق أمانيهن إذ قد نجح بعضهن في الحصول على الأغلبية في الانتخابات العمومية، وذلك في بعض الولايات، ولست بحامدتهن على هذه الأطماع الكبرى، لأن هذا ممّا يشوش الراحة العمومية، ويخرب فوق كل شيء السعادة البيتية، فالأولى بهن القناعة بمقامهن الرفيع وبذل مقدرتهن في نشل غيرهن من بنات جنسهن اللواتي قد حكم الزمان عليهن بالذل والهوان.

المعرض ولا أزيدك بيانًا في غاية قصوى من العظمة والجلال، وقد كنت أود لك القدوم إلى هذه الديار ومشاهدة غرائب الفنون ومدهشات الصنائع، وعجائب الاختراع التي لا يحيط بوصف إتقانها ومحاسنها قلم ولا بيان، فقد بذل الأميركان النفس والنفيس في جعل معرفتهم آية القرن التاسع عشر، وعمومية التقدم والارتقاء، فجمعوا في بنائه وكمالة معداته قدرة القوى العقلية، وقوة المدارك البشرية حتى غدا جنة العلوم والآداب، ومرتع الفنون والاختراعات على أنواعها التي ويا ليت الوقت يطول عليَّ فأستطيع بأن أشرح لحضرتك بعض ما شاهدته من الآثار والمآثر، ولكن أبى الزمان إلا معاندتي، ولذلك سأترك هذا للجرائد والصحف الإخبارية.

لا أرى بدًا من ذكر القليل عن قصر النساء الذي تزدحم فيه أقدام المتفرجين من كل قاص ودان، فإنه في غاية الجمال الهندسي، وقد زينت قاعاته الواسعة بجميع أعمال المرأة اليدوية والعقلية التي جمعت من جميع الأقطار المسكونة الأربعة، لتكون برهانًا قاطعًا على مقدرة المرأة في كل فرع من الفنون والعلوم، فإن التطريز الموجود فيها ممّا يأخذ الألباب سحرًا بمحاسنه الكبرى وإتقانه البديع، هذا عدا عن بقية الأشغال اليدوية من تصوير وحفر وما شاكل، ولو جئت لأذكر لك بالتفصيل عن كل ما حوته هذه البناية الجميلة من البدائع والمحاسن لضاق الوقت، وأنا بعدُ عاجزة عن استيفاء وصف النزر القليل.

يسرني بأن أخبر حضرتك بأني عزمت إذا شاء الله على إنشاء مجلة علمية أدبية أول كل شهر في اللغة الإنجليزية، وإذا وفق الله سيصدر العدد الأول من شهر تموز (يوليو) القادم، ومع كل ما سأرسله إلى ناديك لتطلعي عليه، ونجاح المجلة إن شاء الله لأن لي أصدقاء ومعارف كثيرين يأخذون بيدي، ويساعدوني بقدر الإمكان، وسيكون القصد الأكبر منها رفع الشرق وآله في أعين الغربيين، وإظهار حسنات أهله ومعارفهم وآدابهم وأخلاقهم، لعل الغربيين يرجعون عن احتقارهم للشرق واستخفافهم بشأنه، والله الموفق إلى خير الأحوال.

لقد أطلْت عليك الشرح، وبودي لو تمكنت من مراسلة «الفتاة»، ولكني عسى أن الأحوال توافقني في الاستقبال، فأقوم بحق الواجب نحوك ونحوها ونحو الوطن عمومًا.

❋ ❋ ❋

رسالة هَنا كوراني الثانية إلى صديقتها هند نوفل منشورة في مجلة **الفتاة**، السنة 1، ج 10 (15 شباط/ فبراير 1894م – 9 شعبان 1311هـ).

الرسالة نُشرت بعد احتجاب المجلة سبعة أشهر، ما يعني أنها كُتبت في آب/ أغسطس 1893، على الأرجح.

عزيزتي الفاضلة هند نوفل

تناولت كتابك الكريم وأنا بين أشغال شاغلة، واجتماعات حافلة، ومؤتمرات منعقدة، وليالي أنس جامعة بين العلم والأدب، والزهد والطرب، والشموس والأقمار الأبهة، والافتخار إلى غير ذلك من درس ثمين، وترويض بهي ممّا لا نهاية له في دائرة هذا المعرض العام الجامع بين قبائل الأرض على اختلاف علومهم وآدابهم وصنائعهم ومتنزهاتهم ولهوهم، ومحاسنهم وقبائحهم، وأخلاقهم وعوائدهم. وفي الحقيقة إني أنظر إلى هذا المعرض كمدرسة عامة مجانية لدرس طبائع وأخلاق وعوائد ومشارب البشر على ضروب صنوفهم وفنونهم. وكنت أود لكثيرين من بلادنا الشرقية القدوم إلى هذه الديار، للتمتع بجمال فائق، وإتقان بديع يصادفه المرء في هذه الروضة الغنّاء أين سار وكيفما حل. كما وأنه يفعل في قوى الإنسان العقلية كسحر عجيب، إذ يرقي العواطف لهجر الدنايا واكتساب الفضيلة ورفع الإدراك إلى درجة سامية، وينزّه الأميال عن كل فكر يشين، بل يخلق في صدر الإنسان محبة للعلم، وإكرامًا لذويه، ويوجد في طي قلبه غيرة على التقدم ومحركًا للارتقاء من أمور شتى، ممّا يحتاجها شرقنا ويندبها عالمنا، ويحث عليها محب الإنسانية بيننا.

وتأكدي يا عزيزتي بأنني كلما تأملت في جمال هذا المعرض، وعظم مساحته وما حواه من البدائع والغرائب، كلما تاقت نفسي إلى الدرس والاستفادة والتنزه بين علومه الزاهرة، وفنونه الباهرة، ورياضه الزاهية، حتى أصبحتُ به كأني مأخوذة بمدهشاته، مسحورة بعجائبه، لا أقوى على عمل كان خارجًا عن دائرته، ولا أرى سرورًا إلا بروضته، ولهذا أرجوك صفحًا كريمًا أيتها الكريمة لقاء تأخيري عن مكاتبة الفتاة العابقة بمسك آدابك، لأن وقتي قصير جدًا، والشواغل كبرى.

ولقد تكلمت كثيرًا عن «الفتاة» مع أكثر صديقاتي اللواتي هن من أعاظم هذه البلاد، علمًا ومقامًا ولطفًا وكمالًا، فأضرمن جميعهن في صدري نار الأمل بالنجاح التام، وإنما العثرة الوحيدة بأن «الفتاة» عربية، ولو فكرت ما لنساء هذه البلاد من المحبة إلى الجرائد، وتعضيد أصحابها بعكس الأكثرين من نساء بلادنا، وخصوصًا بعض المثريات منهن اللواتي لا يزلن ولا شغل لهن إلا

التسابق على حب التماثل في ضروب التأنق والأزياء، لما شق عليك صدور مجلتك الغرّاء بحبر شرقية وحلل غربية، أعني باللغتين العربية والإنجليزية، بحيث يكون لها في هذه الديار الرواج والنجاح لأنني بعد طول الاختبار قد تأكدت أن الغربيات الفاضلات، ذوات الثروة وربات العرف وسيدات الذكاء، لا يفترن غرة زمن عن إسعاف بنات جنسهن، والأخذ بناصرهن، لإبلاغهن معارج الارتقاء وسلم النجاح.

ولا يخالك إني أقول ذلك إجحافًا بحقوق نساء بلادنا الشرقية، فإني على يقين من وجود سيدات فاضلات في مصر وسوريا والبلاد العربية لا يغفلن عن مد يد النجدة للأخذ بناصر «الفتاة» بكورة الشرق، بعد أن بدت للعيان رافعة راية الحق، وطالبة بواجب الوطنية وفروض الإنسانية، معلنة فضائل الشرقية وما لها من الأيادي البيضاء في عالم الآداب والمعارف. كما وإني لا أستلفت أنظارك على صدورها عربية إنجليزية بمعنى أن الشرق العظيم عاجز عن الإقبال على جريدة فريدة في مصدرها وعنوانها ومقاصدها، ولكنني أقصد بذلك زيادة الفائدة للقراء والقارئات عندما تصبح الفتاة قادرة على أن تترجم للغرب كمال وآداب الشرق، وإلى الشرق علوم ومعارف الغرب.

ولا يخفاك أيتها الكريمة أن نساء الغرب ورجاله دأبهما إسعاف الأدب، وإمداد آله بما يصل إليه حد الإمكان. وقد تعجبت غاية العجب عند مشاهدتي في هذه البلاد عددًا لا يحصى من الجرائد النسائية، وجميعها تعود على صاحبتها بالشهرة والمقام الرفيع والدرهم البراق، حيث لا يمر بي يوم، مع كوني غريبة الديار، إلا ويأتيني عدد، وأحيانًا أعداد من هذه الجرائد النسائية التي أقل جريدة منها لا يقل عدد مشتركيها عن العشرة آلاف، وبعضها تتوزع على ما يزيد عن مائتي ألف مشترك، فضلًا عن ذلك فإن لمحرراتها ومديراتها المقام الأول في الهيئة الاجتماعية.

فيا لله ما أعظم الفرق بين رجالنا ورجالهم، ونسائنا ونسائهم، فإنهم لا يفترون غرة من الدهر عن إحراز الأدب، وعضد الخير العام، وهذا هو السبب الأكبر لنجاحهم وتقهقرنا.

فلا تترقى بلادنا الشرقية قبل تنكّب رجالنا ونسائنا (صغارنا وكبارنا) على اكتساب العلم وتعضيد أربابه، كأصحاب التآليف والجرائد والمكاتب والمطابع، ولا من يلومني إذا أخذت أن أندب الفضل آله وماله من بلاد لا يجتهد أفرادها في تعميم المعارف، وترويج بضاعة الآداب، ولا هُم يخجلون بإغضاء الطرف عن معاضدة ومؤازرة ومساعدة ذوي العلم والفضل، ولا من عدم الإقبال على الكتب العلمية والجرائد الإخبارية، والمجلات الأدبية كفتاتنا الزهراء، وهي تصدر في البلاد المصرية تحت الراية العثمانية، باسمة عن درر الفوائد ونفائس الفرائد، في كل موضوع تعود فائدته على بنات جنسها، فعساهم أن يستيقظوا، وإلى فروض الوطنية والجنسية يعيرون التفاتهم الأكبر لتسعد بهم البلاد، ويعلم الكل أن المرأة هي أم العائلة، وبدون تعليمها وتهذيبها وتثقيف عقلها ومعرفتها حقوقها وواجباتها، لا نجاح ولا تقدم ولا إصلاح، لأن البنين لأمهم أتباع، والبنت من أمها تعرف طبائعها.

وإني أشكرك شكرًا جزيلًا على تلطفك بإدراج رسالتي الأولى والثانية في صفحات فتاتك الغراء، ولو علمت بأنهما يصادفان منك هذا الحظ الأكبر لجعلتهما أهلًا لذلك، وصرفت على كتابتهما الوقت اللازم، ولكن هذا أراه هنا مستحيلًا إذ الوقت يمر كمر السحاب، لا يشعر المرء به، كما وأنه لا يعلم ماذا يفعل لإتمام ما يتراكم عليه من الواجب والضروري، والكل يئنون من سرعة كرور الأيام، وفي هذا دليل على اجتهادهم ونشاطهم وإقدامهم على عظائم الأمور التي تحتاج لإتمامها وقتًا طويلًا، وعلى ما تقدم أكتب إليك الآن على عجل، وآمل أن «الفتاة» ستكون الوسيلة الكبرى لرفع مقام المرأة الشرقية في عين أختها الغربية، كما وأنها تكشف للشرقية عوامل ارتقاء الغربية وطريق تقدمها، فتصبح بذلك فخر الشرق ودليل الغرب، ولك عليَّ ما دمت في هذه الديار أن أخدم فتاتك بما استطعت إليه سبيلًا، وهذا أراه فرضًا لازمًا يفرضه عليَّ حب الأدب مع حب الوطن، والغيرة على المرأة الشرقية وارتقائها سلّم الفلاح، والله أسأل أن يأخذ بيدك إلى كل ما يؤول لخير جريدتك، وبني جنسك، والسلام ختام.

رسالة هَنا كوراني الأولى إلى ماي رايت سيوول؛

ترجمة: ربا خدام الجامع

عزيزتي

لقد غادرتِ شيكاغو عصر يوم الأربعاء[1] وأخذت معك كل ما هو ساحر ونبيل وجميل وتنويري وممتع في معرض العالم والمتمثل بحضورك الآسر المبهر وسحرك وجمالك الذي حل في ذلك المكان. أود أن أقول لك أني أشعر بغصة لرحيلك، وأود أن أعبّر عن مدى اشتياقي للنور الذي يشع من عينيك، وللرقة في صوتك، ولرجاحة تفكيرك، وكل ما أقوله الآن ليس سوى تكرار بلا معنى للشيء ذاته، ومع ذلك أحب ان أطيل التركيز على صفحة من الحياة التي عشتها في أميركا، ضمن حياتي ككل والتي خلقت في داخلي عشقًا متجددًا لأي نشاط مستقبلي، ودفعتني للاعتقاد والإيمان بأنه بوسع المرأة أن تكون عظيمة هي أيضًا، بما أنك أنت نفسك امرأة. ويسعدني بأنك قد عرفتني بما فيه الكفاية لتؤمني بصدق كل ما قلته لك، ولتؤمني بأني أحببتك أكثر من أي إنسان آخر على وجه البسيطة، بعدما اكتشفت أنك الأفضل والأعظم، وبأن الكثيرين غيري يرون فيك ما رأيته ولمسته. لكم كنت أتمنى لو أنك تفهمين اللغة العربية، تلك اللغة التي تحمل بين طياتها العواطف الجياشة والشعر والتعابير الجزلة، لكنت حينها كتبت لك رسالة بالعربية أعبّر لك فيها عن حبي واحترامي لشخصك الكريم، وتقديري لمساعيك وجهودك الحثيثة، عندها يمكنني أن أعبّر بالكلمات بما يرضيني لأكتب شيئًا يليق بك ولأجلك. إلا أنني سأبذل قصارى جهدي من خلال اللغة الإنجليزية التي أتقن شيئًا منها، وكلي ثقة بكرمك الذي لا يعرف أي حد لأنك لابد وأن تعذريني على الأخطاء التي لابد وأن أرتكبها.

لقد أتيت إلى مقركم الرئيسي لأكتب لك هذه الرسالة الموجهة إليك، وأنا أشعر بأنه بوسعي أن أكتبها في ذلك المكان الذي يعبق بعبير حضورك الذي ما يزال يضوع برائحته الزكية في هذه الأرجاء. ولكن يؤسفني أن أقول بأنها لن تكون أطول من موعد معك في المعرض بأحسن الأحوال.

(1) الرسالة غير مؤرخة ولكن نصها يشير إلى أنها كتبت في الفترة الأخيرة من معرض شيكاغو، ربما في أيلول/ سبتمبر أن أغلب الوفود النسائية غادرت المعرض وبقي معرض الأشغال النسوية ومعرض الكتاب النسوي لآخر أيام المعرض في تشرين الأول/ أكتوبر 1893.

كثيرون من أصدقائك يتذكرونك ويتذكرون أمسياتك الآسرة في بيتك بولاية شيكاغو، ومعظمهم يتملكه الحزن ويعتصر فؤاده حزنًا بسبب انتهاء المعرض.

في الواقع بدا الأمر وكأنه مع رحيلك رحل السحر والمتعة من معرض العالم، والذي سيتحول بعد بضعة أسابيع إلى مجرد حلم من بلاد الخيال وضرب من الماضي.

ولقد أتيت إلى هنا أيضًا لأتعرف على من تسمونها السيدة أنطوني، ولكن لسوء حظي لم أتعرف عليها بعد.

أتمنى أن تكوني أنت والسيد سيوول قد وصلتما إلى دياركما بسلام ووجدتما كل ما يرضيكما هناك.

أرجو أن تبلغي السيد سيوول خالص مودتي وسلامي وأن تتقبلا محبتي الخالصة وعميق تقديري واحترامي لشخصكما الكريم

حماك الله وبارك بك يا مليكتي

المخلصة لك

هَنا ك. كوراني

* * *

رسالة هَنا كوراني الثانية إلى ماي رايت سيوول؛

ترجمة: ربا خدام الجامع

سينسيناتي: 8 كانون الأول/ ديسمبر 1893، الفندق الكبير

غاليتي ومثلي الأعلى

رغبت أن أكتب لك بالفعل لأعبّر عن خالص تقديري وعن المشاعر المبهجة التي اعترتني، وعن قيمة المعارف التي حصلت عليها واكتسبتها بفضل

حضورك التنويري في منزلك المثالي، ولكن ولسوء الطالع لم يتسن لي الوقت قبل الآن يا عزيزتي بسبب خوفي من عدم لقائي بأي أحد، وذلك لأن وجهة رسالتي كانت خاطئة، وهذا ما حدث بالفعل. أما غراند هوتيل/ الفندق الكبير، فقد كان قريبًا للغاية من المكان الذي أقمت فيه، وقد اطّلعت هناك على بعض الأمور إلى أن تعلمت كيف أرسل خطابًا لصديقتي لنلتقي سوية. وعلى بُعد منزلين أتت صديقتي لرؤيتي، ثم عرضت عليَّ أن تأخذني إلى بيتها بصحبة أحدهم، إلا أنني كنت متعبة للغاية وأعاني من صداع شديد، لذا لم أتمكن من الذهاب. وفي تلك الأمسية كنت أستريح في شرفة الفندق بجانب السيد برايان، وهو ليس بنزيل هنا، مع كوكبة من الأصدقاء الرائعين، الذين كانوا بقمة الشجاعة والمروءة حينما أتحفوني بزيارتهم. وبعد حصولي على كتاب شكر موقّع من قبل الرئيس لاهتمامي بعملهم.

حسنًا، في ذلك الصباح جاء السيد برايان مع شقيقته ليصحباني إلى منزلهما، وبينما كنت أتحدث عن محاضراتي، اتصلت السيدة ثروول، وبعد نقاشنا حول العديد من الأمور، أخبرتني بأنه بوسعي إنجاز أكثر من ذلك، وبشكل أفضل، لذا نصحتني أن أبقى في الفندق، لأنه أشبه بقصر فخم مخصص للطبقة الراقية الثرية، وقالت لي إنه من الأسهل لمن يريد أن يزورني أن يمر بي وأنا في هذا الفندق، وقالت لي بأن كل ما في لهجتي سيكون له أثر أكبر على من في هذه المدينة، في حال بقائي في هذا الفندق. وبعد أن أضع نفسي تحت إدارتها وإمرتها، عليَّ أن أقوم بما تأمرني به. في الحقيقة؛ الفندق واحد من أفضل الفنادق هنا التي تفضلها السيدة سيوول، إلا أن تكاليفه باهظة الثمن جدًا. وبالنسبة لمحاضراتي، يمكنني أن أخبرك أنني لم أصل إلى شيء محدد بخصوصها، لكني سأكتب لك مرة أخرى حول هذا الموضوع. ولقد تحدثت مع السيد برايان بوصفه مدير المجلس، فأخبرني أنه يتمنى منك أن تفكري بالأمر، وبأنه كان فقط ينتظر الفرصة الملائمة ليكتب لك رسالة لطيفة، بل أروع رسالة تصل إليك على الإطلاق، بصرف النظر عن تكاليف وأجور إدارته للأمر، وأعرب أنه لن يضيق صدرك بسببي لإقامتي في هذا الفندق، ولقد وجدت في كلامه ما يفيدني بالفعل لأقوم بصياغة مقدمة جيدة أعرضها على خيرة الناس.

ولقد كان المدير مهتمًا للغاية بأموري حيث رد عليَّ بشكل تام ومفصَّل. وبهذا أكون قد وجهت لك هذه الرسائل من الفندق وأطلب منك أن تكتبي لي عن نفسك وعن أحوالك يا عزيزتي.

أرجو أن تنقلي تحياتي الحارة لزوجك الرائع السيد سيوول، مع ذكرياتي الطيبة لابن أخيك المتميز ولك أيضًا يا غاليتي.

وفي الختام أوجّه لك كل أزهار محبتي مع خالص احترامي وإعجابي وجزيل شكري وامتناني.

المخلصة لك والمُجلة لشخصك

هَنا ك. كوراني

* * *

رسالة هَنا كوراني الثالثة إلى السيدة ماي رايت سيوول

ترجمة: ربا خدام الجامع

شيكاغو 16 كانون الأول/ ديسمبر 1893

السيدة ماي رايت سيوول

غاليتي ومثلي الأعلى

إنه لمن دواعي سروري أن أكتب لك لأنني أحس وأنا أكتب وكأنني أجلس قبالتك وأتحدث إليك وجهًا لوجه، وأنت تعرفين بأن خيالي خصب، وبأنه ينقلني لأروع الأماكن التي أتمنى أن أقيم فيها، ومنها شيكاغو التي شعرت بأنها ساطعة كنور الشمس، إلا أن وهج تلك المدينة ذات البياض الساطع الذي تعكسه البحيرة القريبة منها بعث في نوعًا من البرودة والكآبة مع شيء من التعاسة في صباح اليوم الذي وصلت فيه إليها. إلا أنني أحسست برغبة في الجلوس والإجهاش بالبكاء، بيد أن روعة ولطف الصديقة التي أقيم معها الآن منعاني من الاستسلام للكآبة وبثّا بداخلي إحساسًا بالسعادة وشعورًا بالامتنان

والشكر، كما غمرا قلبي بالبهجة، ممّا أبعده عن كل شيء يضايقه في هذه المدينة.

هذا وقد قابلت السيدة فريدريك سميث ووجدت فيها إنسانة صادقة وكريمة وسيدة لطيفة بالفعل. وهكذا فإن صديقاتي في شيكاغو ودودات كما كنَّ على الدوام، إذ إنهن يبذلن قصارى جهدهن ليقمن بكل ما بوسعهن القيام به لمساعدتي. وهذا ما يسرني بالفعل. ولقد أثبتت السيدة جودج وورتمان لطفًا وعطفًا استثنائيين؛ إذ إنها ستقيم لي جلسة لأحاضر في صالونها ببيتها الجميل، وذلك في الثامن والعشرين من شهر [كانون الأول] ديسمبر، فهذا الموسم مناسب جدًا للمحاضرات، غير أنني أحاول أن أبذل جهدي، إذ إن كل يوم يحمل معه شيئًا جديدًا يمكنني أن أتعلمه.

حسنًا كيف حالك يا غاليتي؟ أعرف أن حياتك الجميلة والنبيلة مترعة بكل ما يجعل الحياة سعيدة وهانئة ومفيدة وتستحق أن تعاش. فاليوم السعيد الذي أحلم أن أعيشه هو ذلك اليوم الذي أتمتع فيه بلطفك الغامر والذي تعلمت فيه ما ينفعني في حياتي، وهو يوم يمثل مهنتك بحيث يركز عليها أشد التركيز، بحيث سيتحول ذلك اليوم إلى مادة تسترشد بها خطواتي في العمل الذي اخترته لنفسي.

لم أستلم بعدُ أي اسم من قبل زوجي بخصوص الحقيبة الكبيرة، ولست متأكدة من أنه سيقوم بإرسالها لأروع رجل، ألا وهو السيد سيوول.

وأخيرًا أتقدم بتحياتي للسيد سيوول وللسيد رايت مع تمنياتي لهما بحياة مديدة، وأقدم لك خالص إعجابي واحترامي لشخصك، وأعدك أن أبقى كذلك على الدوام.

المخلصة لك والمولعة فيك

هَنا ك. كوراني

* * *

رسالة هَنا كوراني الرابعة إلى السيدة ماي رايت سيوول

ترجمة: ربا خدام الجامع

غراند هوتيل 11 [كانون الأول] ديسمبر

إلى السيدة ماي رايت سيوول

عرابتي النبيلة الغالية

إنني لمتأكدة من رغبتك بأن تعرفي مدى نجاحي في سينسيناتي، لذا أود أن أخبرك بأني قد نجحت بالفعل ولكن ليس في الوقت الراهن، بل إن نجاحي هو نجاح حققته من أجل المستقبل. لقد أعددت العدة لجلسة قراءات في الصالون الأدبي، ولمحاضرة عامة خلال أول أسبوعين من شهر يناير/كانون الثاني بعد عودتي إلى هنا. ولقد رأت السيدة الأستاذة الجامعية بأنني سأنجح بشكل كبير خلال هذه المرحلة التي ستأتي بعد فترة العطلة والأعياد، لأنها ترى بأن الجميع مشغول بالاستعداد والتحضير لعيد الميلاد هذه الأيام، وأعتقد أنها كانت على حق في ذلك.

يا إلهي، كم أشعر بالسعادة في هذا الفندق بعد عودتي من منزلك الرائع واستقبالي لبعض الزائرين، من بينهم السيدة برايان والسيدة ثروول، إلا أن الوضع يختلف تمامًا عمّا هو عليه في وطني وبيتي، ولكن كما سبق وأخبرتك في رسالتي السابقة، أخبرتني السيدة ثروول بأنه سيكون لذلك تأثير أفضل في سينسيناتي على الناس في حال مكوثي في هذا الفندق، وهذا ما تم بالفعل.

هذا ولقد وصلتني رسالة من زوجي أعلمني من خلالها أنه يهديك أصدق التحيات لك وللسيد سيوول، ويحدثني فيها عن جمال كاليفورنيا، إلا أنه لم يذكر لي أي شيء حول حقيبتي الكبيرة المنحوسة. أتمنى أن أبقى في بالك وتفكيرك على الدوام، وأن تتمني لي الأفضل، وأن تثقي بي لأكون في أي مجال يسعى لتحقيق الأفضل، فأنا أحاول أن أصبح جديرة بصداقتك وعطفك، غير أن معرفتي بهذا العالم ما تزال ضئيلة، لذا وجدت نفسي أعاني من انعدام

الخبرة، غير أني مع الوقت ومزيد من الخبرات والمحاولات الدؤوبة لا بد وأن أصبح قادرة على التعلم في هذا المجال، إذ لم أكن بحياتي مستقلة ومعتمدة على نفسي، ولهذا بدأت بتعلم هذا الدرس المفيد الذي تحتاجه الكثير من النسوة، [و] لا سيما الشرقيات منهن.

وفي الختام أتمنى منك أن تذكريني للسيد سيوول ولابن أخيك العزيز

وتقبلي مني احترامي وإعجابي بشخصك الكريم

المخلصة لك والمولعة بك أبدًا

هَنا ك. كوراني

* * *

رسالة هَنا كوراني الخامسة إلى السيدة ماي رايت سيوول

ترجمة: ربا خدام الجامع

بروكلين ن. ي. 23 شباط/ فبراير

السيدة ماي رايت سيوول

عزّابتي الغالية

لكم أتمنى ألا يكون وقتي ضيقًا للغاية لأجلس وأكتب لك كل ما أود أن تعرفيه مع كل ما يمتعك ويهمك؛ فعلاقة الصداقة المبنية على الإخلاص التي تربطني بك كنز ثمين بالنسبة لي، وإنني لأشكر الله دومًا على منحي إياها. لقد كانت السيدة هيلموت مهتمة للغاية، فقد وعدتني لأتحدث أمام منتدى سوروسيس، وقد قمت بذلك يوم الاثنين من هذا الأسبوع. ويسرني أن أخبرك بأن الجمهور الذي سمعني أعرب أنه كان في غاية الرضا والبهجة والسرور. كما شعرت بأنني مؤثرة وبأنني أتطور بصورة يومية. فالحرية والاستقلالية جوهرة كريمة بالنسبة للمرأة، لما يمنحانها من الإشراق ويجعلانها تشع وتلمع، لم أكن بحياتي مشرقة كما أنا الآن، إلا أنني أعرف وأشعر بأن مرحلة الإشراق بدأت

تفعل فعلها داخلي. إذ لم أدافع البتة عن حق المساواة والاستقلالية الشخصية كما أفعل الآن، إذ بدأت أشعر بأنه عوض عن التدخل بهذا الشكل بالصفات الذاتية للمرأة ووعيها، يجب عليهم أن يحددوا تلك الأمور وفقًا لحقوقها.

أعتقد أنك لا بد وأن قرأت عن حق التصويت للمرأة واطلعت على كل ما يتعلق به، لذا أعتقد أننا يجب أن نعيد ونكرر ما اطلعنا عليه.

والبارحة التقيت السيدات المؤيدات لحق المرأة في التصويت في مدينة بروكلين بمقاطعة كينج [كينغ]، وتناولنا العشاء بمناسبة هذه الذكرى مع الآنسة أنتوني، والآنسة فاو، والسيدة تشابيران، والعديد من الشخصيات البارزة التي كانت حاضرة، وهكذا كانت الأمسية عامرة ورائعة. وبعد العشاء سمعنا عدة خطابات، من بينها خطابي المتواضع الذي رحبت من خلاله بالحاضرين باسم المشرق. وعصر هذا اليوم سأذهب لألقي محاضرة أخرى، فكما ترين أصبحت ارتباطاتي كثيرة وبلا حدود.

وأخيرًا أود أن أسألك كيف حال السيد سيوول؟ أرجو أن تخبريني إن كان قد عاد من فلوريدا بعد قضائه عطلة نهاية الأسبوع بأكملها.

مع إشراقة كل يوم أفتقد حضورك الرائع والراقي والملهم في.... (اسم مكان)، وإني لأتحرق شوقًا للقائك هناك.

أحسست وأنا في غرفة الجلوس أنني أطيل التفكير بصحن الكأس الذي أرسلته للسيد سيوول، فهل لك أن ترسليه لي عبر البريد السريع، وسأدفع لك ثمنه؟ يؤسفني أنني أُتعبك معي بخصوصه، إلا أنني بحاجة ماسة إليه.

أتمنى أن تذكريني بكل خير أمام ابن أخيك السيد رايت، وأن تثقي بمحبتي الكبيرة لك والتي أتمنى أن أحافظ عليها على الدوام، إلى جانب إعجابي الكبير بك وامتناني لشخصك.

المخلصة لك دومًا

هَنا ك. كوراني

الملحق (2)
الخُطب

يضم هذا الملحق الخطابات الثلاثة التي ألقتها هَنا كوراني في بيروت وشيكاغو مرتّبة زمنيًا:

أولًا: خطاب بعنوان «إنهاض الغيرة الوطنية لترقية البضائع الشرقية» ألقته المحصنة الأديبة هَنا كوراني في مدرسة الأحد مساء الجمعة الوقع في 10 آذار/مارس 1893 أي قبل سفرها إلى شيكاغو بنحو شهر، وطبع بمطبعة جمعية الفنون في بيروت، ووزع مجانًا بنفقة خليل دراج، كما هو مثبت في النص المطبوع.

ثانيًا: خطاب باللغة الإنكليزية بعنوان «مجد الأنوثة» ألقته في مؤتمر المرأة العالمي في 25 أيار/مايو 1893، ونشرت اقتباسات منه في التغطية الصحافية، ثم نشر بنصه في كتاب «المؤتمر النسائي» المطبوع في عام 1894 الذي سبق أن أشرنا إليه في أكثر من موضع في هذه الدراسة، مع نبذة مختصرة عن الكاتبة.

ثالثًا: خطاب للسيدة هنا كسباني كوراني بعنوان «مكانة المرأة في سوريا» ألقته في إحدى الحلقات الدراسية على هامش المؤتمر في شهر آب عام 1893 على الأرجح. ونشرته السيدة ماي رايت سيوول في كتابها «المؤتمر العالمي لممثلات النساء» المطبوع عام 1894 في شيكاغو ونيويورك.

رابعًا: خِطَابٌ للسيدة هَنا كسباني كوراني، مندوبة سورية في مؤتمر شيكاغو العلمي العام (1893) بعنوان «التمدن الحديث وتأثيره في الشرق» ألقته في بيروت في 26 أيار/مايو 1896، بعد أشهر قليلة على عودتها من

باريس التي أمضت فيها أسابيع عدة، آتية من نيويورك. وقد طبع هذا الخطاب في مطبعة المعارف في بيروت في عام 1896، كما هو مثبت على النسخة التي أخذنا عنها النص. وذكر جرجي نقولا باز في ترجمة هَنا كوراني التي نشرها في مجلة **فتاة الشرق**، 1906 (2/ 362-366) أن المحاضرة أُلقيت في قاعة مدرسة الأحد في بيروت، وحضرها أكثر من 600 شخص.

إنهاض الغيرة الوطنية لترقية البضائع الشرقية

مدرسة الأحد في بيروت، 10 آذار/ مارس 1893

قُدِّر على الشرق الهبوط بعد الارتقاء، والمقدَّر كائن لا يرد، وقضي على أهله بالضعة بعد الرفعة والعلا، وقضاء الله واقع ليس منه مفر، على أن الزمان لا يجور إلا ويرحم، والبلاء لا يعم إلا وينجلي بين ظلمائه شعاع الفرج والنعم، فحمدًا لمن بيده مقاليد الأرض والسماء، إذ أزال عن شرقنا الكربة، وجلا عن محياه الصافي آثار الحطة والذلة بعناية وإحسانات حضرة صاحب الشوكة والاقتدار سيدنا ومولانا السلطان عبد الحميد خان الجامع للعدل مع الرحمة، والحلم مع الرهبة، متفرد بأوصاف الجلال والكمال، يعلو على الخلق بشمائل قل فيها ربي زده سموًا على كرور الأيام، وأيده بالنصر مدى الأعوام، إنك الجبار المتعال.

لقد كرت بنا الأعوام ونحن راقدون، ومرت بنا الأيام ونحن غافلون، فات الأوان الذي فيه نهب من كرى الغفلة ونستفيق من رقاد التهاون، فإلى متى نسير في الأرض كمن أضاع رشده وفقد بصره، ونحن في زمان لا تغرب شمس يومه، ولا يطلع قمر ليله إلا ونشاهد أو نسمع من الغرائب والعجائب مما يستوقف الأنظار ويذهل الأبصار ويشغل الأفكار، فها إن الجرائد الأجنبية مع جرائدنا الوطنية تصرح بما لأهل هذا العصر من الأذهان المتوقدة، والذكاء المفرط، والغيرة الشديدة على التقدم والارتقاء، فإن ميدان المناظرة بين الغربيين قد ازدحمت في أرضه الأقدام، وكثرت في سباقه الأقوام، وقام منادي الجد والعزم ينادي أهل العرف وذوي البصيرة هلم امتطوا صهوات الإقدام، وتسلحوا بسهام الهمة والثبات، وتجندوا تحت لواء الإنسانية وابرزوا إلى ميدان السباق،

ولتجري [ولتجرِ] بين بعضكم حرب في أيكم أشد قوة وأعظم بأسًا وأصلب زندًا في رفع شرف بلادكم وتمجيد أوطانكم ونفع بني جنسكم وإخوانكم، فقام الألوف وصرفوا العزيمة والفكرة، لا؛ بل العمر والحياة في عمل ما يعود على بلادهم وبني جنسهم بالعزة ورفعة الشأن طوعًا لمنادي الوطنية وامتثالًا لداعي الجنسية، فرُقّوا إلى أسمى مراتب الفخر، ووصلوا إلى ذرى الأمجاد، وكان من وراء ذلك أنهم أمطروا على بلادهم سحائب الخيرات والنعم، فازدهرت من الأزهار أزكاها نشرًا وعرفًا، وأثمرت أشهاها منظرًا وألذها طعمًا.

أيها السادة الكرام. إذا تصفحنا التاريخ وتأملنا جليًا في سلسلة حلقاته، وتبصّرنا مليًا في عوامل ارتقاء البشر وتقدّمهم، نرى أنه طالما كان لصوت الضعيف فيهم قوة تجددت بها العزائم، وتأثير أضرم في قلوبهم نار الغيرة، فأحرقت ما هنالك من التكاسل والتراخي، ولاشت ما خفي من الأهواء الباطلة والشعور الرديء، ثم محصت الجد والنشاط والصبر والثبات، وأشعلت وقود المحبة والوطنية، وقادت الإنسان إلى اقتحام عظائم الأمور، وشددته على الثبوت ضد نوازل الارتقاء. وإني الآن أقف لديكم معترفة بضعفي وبنوارة معارفكم، وسعة مكارمكم، لا منزع لي إلى تعليمكن وإرشادكم، إنما توخيت تذكيركم بأمر ذي بال، وقد كان للذكرى منافع كبرى. وهنا أسأل أرباب الهمة، وذوي الوجاهة من أهل بلدنا الأفاضل الذين يذهبون سنة بعد أخرى إلى البلاد الأوروبية، ويكابدوا [ويكابدون] مشقات السفر وأتعاب الغربة، ويبذلون الدرهم النفيس في شراء البضائع المختلفة الأجناس والأشكال أن لا يحنقوا عليّ باختياري موضوعًا للكلام إنهاض الغيرة الوطنية لترقية البضائع الشرقية، بل ليساعدوهم أيضًا بدورهم في ترويج بضاعتنا الشرقية في الأقطار الغربية، فيشد بهم أزر الوطن، وتضمد جراحاته القديمة.

لا يخفى على عارف منا ما كانت عليه حالة البلاد من تقدم الحضارة وضخامة العمران، وما كان لأهلها من موارد الغنى، ومصادر الخيرات؛ فقد كانت مدنها حافلة بالسكان، تزدحم فيها أقدام التجار من جميع الأقطار، حتى لقد قيل عن مينا صور إن الناظر إليه لا يستطيع أن يرى ماء البحر لتراكم

المراكب التي كانت تأتيه من جهات المسكونة الأربع، مقبلة بالكنوز والنفائس من جوهر كريم، ودر يتيم، ومرجان ثمين، وذهب وضاح، وفضة بيضاء، وغير ذلك من الأطياب والعطارات، ومن ثم تقفل مدبرة حاملة من فنون الفينيقيين وأنواع سلعهم وبضائعهم ممّا يعجز قلم البليغ عن وصف جماله الفائق وإتقانها الدقيق، وهكذا كانت حال جميع شطوط سوريا ومدنها الداخلية، فالأراضي الموحشة المقفرة كانت فيما سلف جنات تخترقها الأنهار، وتغرد على أغصانها بلابل الأطيار، وهي ترقص طربًا على نغمات نول الحائك، ومطرقة الحداد، ورنين الآلات الميكانيكية المختلفة الأنواع، ولو جئت مسهبة عن أحوال قدم البلاد لضاق الوقت وفنِيَ العمر وأنا بعدُ على شاطئ ذلك المحيط العظيم، إنما أجتزئ بالكلام بأنها كانت تقل من السكان خمسة أضعاف أهليها الآن، وأما عن تجارتها وثروتها وعمرانها، فحدث ولا حرج.

فما بالنا الآن والحالة التي نحن فيها، هل مادت الأرض بمن فيها فعكست وقلبت الأحوال؟ أم قامت حرب عوان في عالم الهواء فخربت نظامه، وأبدلت تركيبه فغيرت منا الأمزجة والأخلاق؟ أم العتب في ذلك على الزمان وحوادثه والأيام ونوازلها. كلا إن الأرض لم تزل على حالها منذ وجد الإنسان عليها، تحيط بها كرة الهواء النقية على نظام ثابت لا يتغير، والزمان لا تزال شمس نهاره تخترق كل صباح طبقات الأفق بسهام النور فتبدد دياجيره وتجلوا [وتجلو] أوهامه، وتكشف عن وجه الطبيعة برفع الظلام فيتلألأ مكللًا بقطرات الندى التي تهتز معًا بلمعان بهي مترحبة بقدوم عروس الأيام، وقمر ليله لا يزال يتجلى بين عقد نجومه، ناشرًا على الأرض حلة الضياء يحدقها بعينه البيضاء كأنه يحرسها من نائبة الحدثان، ولكن هو الجهل حتى تظلم الأبصار وتعمى القلوب وتغفل الأفكار وتيبس جراثيم الهمة والنشاط، وتسكن محركات الجد والإقدام وتفنى عوامل النمو والارتقاء، فيستولي التكاسل مع التراخي، ويستبد الإهمال مع الإغفال، فتشقى البلاد مع العباد، ويا الله من شر هذا المآل.

فهذا الذي سطا على جدودنا فقهرهم ودك بنيانهم واستنزف ثروتهم

ولاشى صناعتهم وأخرب تجارتهم، أما الآن والحمد للمنّان، فقد أخذت البلاد بظل مولانا السلطان، وعناية دولتنا العلية الباذخة الأركان أن تجدد ماضي عزها، وترد فاني مجدها، فعمّت بيننا وسائل الدرس والتثقيف، وأسباب الرفعة والفلاح حتى أملنا بلوغ المنى، وتحقيق الآمال، ولكننا مع ذلك لا نزال بالنسبة إلى من تقدمونا في حاجة كبرى إلى الإصلاح، ولا صلاح إلا بالإصلاح.

إننا إذا دقّقنا البحث في أحوالنا الحاضرة، وأرسلنا الاستبصار إلى خفايا أمورنا، نرى أنفسنا في حالة تستوجب الشفقة والحنان؛ ذلك لأننا حملنا الذات ما لا طاقة لها على حمله، فقد أخذنا نتشبه بالغربيين، بالزي، والعادات، ونحن متأخرين [كذا] عنهم بالعرف والمال بما لا يقاس، ولذا نرى البلاد تئن مثقلة من عناء هذا الحمل الشاق على عاتقها الضعيف، فقد كنا قبل أن امتزجنا معهم عائشين بالراحة، مقتنعين بما قسمه المولى لنا، فكانت المرأة تغزل بيديها لباس عائلتها، وتكسي رجلها وأولادها من تعب نهارها وليلها، فتوفر على زوجها ثقل المصاريف والاهتمام الزائد في كسوة أولاده، بخلاف ما نحن عليه الآن، فإن الرجل يصل الليل بالنهار وسعيًا وراء تحصيل حاجات عائلته، وهو عاجز عن إرضاء خاطر امرأته وأولاده. وكثيرًا ما يحمّل نفسه أثقال الدَّين الباهظة لتلبس زوجته على الزي الأخير وتكسي أولادها كأولاد الغربيين، ولذا نسمع الأنين متصاعدًا متواصلًا من صدور الرجال وهم يرددون الشكوى بقولهم: تبًا لهذه الأحوال ويا لها من عيشة مُرة لا تطاق، فإننا نركض الليل أكثر من النهار، ونحن مع ذلك عاجزين [كذا] عن القيام بمصاريف العيال، وإرضاء ربة الأزياء، فهنيئًا لمن عاش قبل هذه الأيام، إنه ممن رحمهم الله إنه من الصالحين، فيا ليتنا لم نولد، أو ولدنا في زمان الغابرين.

فهذه هي حقيقة أحوالنا المحزنة، ودخائلنا المشوشة التي كان بوسعنا اتقاؤها والخلاص منها لو تدبرنا أمرنا وأشغلنا القوى في إصلاح أحوالنا الداخلية لا الخارجية. فأرضنا والحمد للمنّان جيدة التربة، رحبة بنا إذا صرفنا الاهتمام إلى فلاحتها وزراعتها، نغتذي منها ونرسل من غلاتها إلى البلدان

الأجنبية ما يعود علينا بالذهب الرنان، وصنائعنا التي نبذناها ظهريًا، والتي يتوقف عليها تحسين أحوالنا المادية لو أعرنا الاهتمام الواجب والاكتراث الأكبر لكفت حاجاتنا من رداء ومتاع وزادت على ذلك، فأرسل منها إلى الغربيين ما فاض على البلاد بالأرباح والخيرات، ولكننا عوضًا عن ذلك نبيع الأجانب محصولات البلاد من حرير وصوف وما شاكل بأبخس الأثمان، ونستردها منهم بدفع ثلها ذهبًا، فيكون الربح لهم لا لنا، فكان جديرًا بنا إتقان صنائع البلاد على أنواعها الشتى، والاستغناء عن السلع الأوروبية لنزيد موارد الثروة ومناهل الغنى، ويتوفر علينا المصاريف الفاحشة التي قد قادت الكثيرين إلى المهاجرة أو الخراب التام. وبالحقيقة أنه يوجد في بلادنا من الأنسجة الحريرية والصوفية والقطنية ممّا يليق بقصور الملوك، فإني قد بحثت فيها ورأيت في أعظمها من دقة الصنعة مع حسن الذوق والمتانة ما كنت أجهله والجهل ذنب سوادنا الأعظم.

ويا حبذا لو تعاون وجهاء البلاد واتفقوا على نبذ البضائع الإفرنجية وصرْف الاهتمام إلى الصنائع والمنسوجات الوطنية على أنواعها، لعاشت البلاد بعد موتها وزادت مداخيلها عن الآن بما لا يقاس، وذلك لرواج البضائع الشرقية في أوروبا وأميركا وغيرها [كذا] من البلدان.

حقًا إنه لا يحسن بنا ارتداء الحرائر الأوروبية الغالية والسريعة الفناء، وفي بلادنا من الحرائر ما يتيه عليها حسنًا وجمالًا، فالأوروبيون عرفوا قيمتها، ونحن جاهلوها، وصار أمراؤهم يتباهون بفرش قصورهم الرفيعة بالأقمشة الشرقية والارتداء بالنسيج العربي وتزيينه بزركشة الشرقية. فإذا كنا نعتقد فيهم بأنهم أرفع إدراكًا وأرقى عرفًا ونحن نقلدهم في الأزياء والعادات، فلماذا لا نقلدهم أيضًا بهذا الأمر، ونرفع شأن أنفسنا ووطننا معًا.

إننا نتباهى بارتقائنا عن السلف وبإحرازنا الأدب، ونتيه عجبًا بما وصلت إليه حالتنا من المدنية والتقدم، ولكن ليت شعري أين الارتقاء والتقدم وحالتنا كما تعلمون. يا للأسف، إن حظنا منها لا الحقيقة، فإن تقدُّمنا الذي نزعمه ليس إلا طيف خيال، وعرفنا الاسم الذي نتوهمه لا يزيد عن قبل وقال فإننا

يا سادة عبيد أرقاء، ولا ندري أننا مستعبدين [مستعبَدون] للزي الأوروبي أو اللاأوروبي. أن نقدم له تعب أيدينا وجنى أيامنا ومحصولات بلادنا فيأخذها عفوًا، محتقرًا لنا مزدريًا بنا، جاحدًا لخدمتنا، ناكرًا لمعروفنا، وما جزاء الغفلة إلا الهوان، فهل يليق بنا نحن الذين لنا الحظ الأكبر من الذكاء والدراية أن نرضخ بمثل هذه الأحوال، وننظر إلى بعض البهرجات مموهين على النفس بالفلاح وبلوغ العلاء.

فيا أيها السادة الكرام، يا من أنعم الله عليهم بالثروة والجاه، إني أستعطفكم بلسان الوطنية أن تحوّلوا أبصاركم البصيرة إلى الصنائع السورية، وتتخذوا ما حسُن منها للرياش والمتا، ليتمثل بكم العموم، ويهتدوا بنور مناركم ليطرسوا على غرر آثاركم، وبذلك تخدمون الإنسانية والوطن الذي هو في أشد الاحتياج إلى مآثركم الجليلة، فحسْن مستقبل البلاد متوقف على رواج صنائعنا وبضائعنا، وهذا منوط [مُناط] بعلو همتكم وتوقُّد غيرتكم ومحبتكم الوطنية، فابسطوا رعاكم الله يد النجدة والإسعاف، وخذوا بناصر المحترفين جميعًا، وبثوا في أفئدتكم الهمة والنشاط للمثابرة على العمل والاجتهاد في إتقان الحرف وإجادتها. فالصنائع إنما تستجاد وتكثر إذا كثر طالبوها، والسبب في ذلك ظاهر، لأن الإنسان لا يسمح بعمله أن يقع مجانًا أنه كسبه ومنه معاشه؛ إذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء ممّا سواه، فلا يصرفه إلا فيما لا قيمة في مصره ليعود عليه بالربح والكسب. والصناعة إذا لم تكن مطلوبة لا تنفق سوقها ولا يجتهد محترفها في إتقانها والتفنن بها، بل يهجرها فتموت وتتلاشى شأن كل شيء. ومن هذا تعلمون عِظم ما يترتب على نجدتكم من الخير الأكبر للبلاد، فاصرفوا العزيمة في ترقية صنائع البلاد، فيرفع لكم الشرق تمثال الشرف مكللًا بتاج الفضيلة، وكفى فخرًا لمن عقل.

أيتها السيدات الكريمات، إن ما أعهده بشخصكن اللطيف من رقة الجانب ودماثة الخلق يجرأني على مخاطبتكن الآن في هذا المشهد الحافل بأرباب العرف وسيدات الذكاء، وما أعلمه من حسْن مبادئكم وتثقيف ذهنكم [أذهانكن] واستعدادكن التام لخدمة الخير العام يحملني [تحملني] على

أن أتقدم إليكن ببعض الملاحظات، ملتمسة من مكارمكن الواسعة قبول ما سأبسطه لديكن، ولا عدمتكن من نصيرات محسنات.

لقد اتفق العلماء الأعلام على أن تقدُّم البشر متوقف على النساء أكثر منه على الرجال، وذلك لأسباب شتى، أعظمها كونها مهذِّبة الأطفال ومربية الرجال، من ملك عظيم إلى فاعل مسكين، وهذا ممّا يجعل تأثيرها العامل الأكبر في اجتناء الخيرات وتحصيل الرغائب. وعليه، جئت أذكّركن أيتها الفاضلات بنظم ما يترتب على كل واحدة منكن من الواجب الخطير نحو الوطن، فأحوالنا الحالية تستدعيكن لصرف المقدرة وبذل الجد والجهد في مداواة الاعتلال وإصلاح الاختلال. ولا يخفى عليكن أيتها الأديبات أن مدام بالمر، رئيسة القسم النسائي في معرض شيكاغو العام، قد حررت إليّ، أنا العاجزة، مع بعض الفاضلات، بتحريك الخواطر وحث الهمم لتأليف لجنة من نساء البلاد لجمع أشغال المرأة السورية على أنواعها وأجناسها، فكتبت مع سواي مستعطفة بنات الوطن إلى الاهتمام بهذا الأمر الخطير، مبيِّنة ما يترتب عليه من الخير العام والفائدة الكبرى، ولكن كنت في ذلك كمن يضرب في حديد بارد ويا للأسف. ثم شرّفتني حضرة الرئيسة المذكورة بأنها دعتني للخطابة في مدة المعرض عن حالة نساء بلادنا السورية، وما هن عليه من العلم والأدب، فلم أر بدًا من تلبية هذا النداء الشريف والامتثال لأمرها الكريم، لئلا يقال في المرأة السورية أنها لا تصلح لشيء، فعزمت، بعد الاتكال على المتعال، أن أذهب إلى تلك الأقطار، واضطررت، إذ رأيت الجميع لاهيات، أن أجمع من أشغال المرأة السورية ومن صنوف بضائعنا الشرقية ما يتيسر للعرض في بناية النساء، لعلّي أستطيع أن أجعل للمرأة السورية اسمًا يُذكَر، وأعلن من آثارها أثرًا يُشكَر، وقد وفقني المولى إلى استحضار صنوف متضاربة من الأشغال التي هي بالحقيقة على جانب كبير من الإتقان والظرافة، ورأيت بين أقمشتنا الشرقية ما يليق بلباس الأميرات وحلل المخدرات مع ما هو عليه من بخس الثمن ومتانة الجنس.

فكيف يسعني السكوت والحالة هذه عن إعراضنا نحن النساء عن

بضائعنا وتهافتنا إلى السلع الأوروبية وشرائها كيف كانت لأغلى الأثمان، زعمًا بأن هذا ممّا يزيدنا تمدّنًا ويكسبنا جمالًا، ونحن في ذلك لسنا سوى خدمة لملكة الزي المتقلبة الرأي، المتغيرة الذوق، القاهرة الصولة، الظالمة القضاء، والتي تطلب من رعيتها تقديم أجسادهن وآدابهن وأموالهن على رغائبها التي لا تحصى، فيا الله من هذا الاستبداد العظيم، والاستعباد المطلق، فكم أشقى من حسناء، وأدمى من نجلاء، وأهلك من هيفاء، وأخرب من آداب، ولاشى من مكرمات.

فلنتحد أيتها الفاضلات، ولنُشهر حربًا عوانًا ضد هذه البلية الصماء، لنقهر صولتها قبل أن تثبت أقدامها في البلاد، ولنصرف أموالنا في نفع أوطاننا وإحياء دارس صنائعنا وموات بضائعنا، ولنرتدي [لنرتدِ] جميعنا بأنسجة بلادنا التي بالحقيقة لا تقل جمالًا وذوقًا عن التي نتهافت إليها من البلدان الأجنبية، متيقنات أن قيمة المرأة لا تقدَّر بنفاسة حللها وحليها، بل بغزارة فضائلها وسمو آدابها وغرر ميثرها، فعلينا باتخاذ التعاون ظهيرًا والاتحاد معينًا، والهمة ساعدًا في إنجاد الوطن وتبديد عوامل القهقرى، ومسهبات الانحطاط، لنكون شعار ارتقائه وعنوان مجده.

ولا بد لي في الختام أيها الأفاضل والفاضلات من إظهار ما لي في شهامتكم العربية، وغيرتكم الوطنية من الآمال التي تعلو بكم إلى أوج المعالي، وترفعكم إلى السهى، فإنكم قد برهنتم في هذه السنين المتأخرة أن لكم بعدُ في نفوسكم بقية من عزم أجدادكم ونشاط آبائكم، ودراية أسلافكم، فسلكتم البحار، جبتم القفار للاتجار واكتساب الأموال وازدياد الثروة: ركن التقدم وعنوان الفلاح، جادين في سبل العلياء في الطلب. وعليه، لا أرى حاجزًا يحول دونكم ودون ترقيتكم للبضائع الشرقية والصنائع السورية التي بإجادتها والإكثار منها تتم معدات التقدم وتتهيأ أسباب الحضارة والعمران، فرجائي ببصيرتكم النيرة إنزال هذا الخلل الأكبر منزل الاعتبار، ولتستعز بكم البلاد وتسعد بمساعيكم الجليلة العباد.

وهنا أرفع لسمو مكارم حضرة أستاذي الفاضل أزهار الحمد، محمولة

على طبق الثناء، متأرجحة بنشر مآثره الغرّاء ومحاسنه البيضاء فريضة شكر وواجب منّة على ما طوق به جيدي من حلي الفخر وقلادة الشرف، بإجادته عليَّ بقبول ملتمسي لتزيين هذه الليلة الزهراء بدرر أقواله وحكم آرائه، فالله أسأل أن يحفظه للوطن عمادًا وللعلم ملاذًا، وإليه عزَّ اسمه أن يوفقنا جميعًا إلى ما به تقدم الوطن ونجاحه بظل ظليل الحضرة السلطانية وعناية أولياء الأمور الصادقين، وله ملك السموات والأرض، فعّال لما يريد.

***

مجد الأنوثة

بقلم السيدة كوراني
ترجمة: رنا عرب
مبنى النساء في معرض شيكاغو: 25 أيار/ مايو 1893

من الأمور الواقعة أن مَن يبحث عن الحقيقة يسير بهديها، ويستضيء بنورها، ويكافح - عند الضرورة - في سبيل انتصارها. لأن الحقيقة تسطع كالشمس في كبد السماء، وترسل أشعتها لتكشف الظلام عن وجه الطبيعة، وتُظهر ما فيها من وافر المحاسن رونق الإبداع.

لكن المعرفة تتحول إلى لعنة، إن نحن جرّدناها من الحقيقة التي هي درع للحكمة. لذا، يتعذّر على البشرية أن تسمو، ما لم تأتمر بأمر الحقيقة، التي تُلهم الإنسان الوطنية والإحسان والاختراع والبلاغة، وبالتالي تجعل منه عاملًا مبدعًا في مجال أنبل الأعمال.

عندما تحدّث الكاتب الفرنسي الشهير جان جاك روسو عن المرأة قال «إن مجدها كامن في كونها مجهولة». وبقوله هذا، كشف النقاب عن شكّه في مقدِّراتها وحدّة ذكائها، كما أثبت طموحه الأنانيّ إلى حصر القوة والمجد في الرجال دون النساء.

ولكن، لحُسن طالع المرأة، هبّت عاصفة التقدّم الفكري، فمحقت تلك النظرية؛ ذلك أن كثيرًا من النساء يقفن الآن، على مرأى من العالم أجمع،

مكلّلات بأمجاد الظّفر، بعدما ذلّلن مختلف أنواع العقبات. إنهن يكتبن بأحرف ضخمة من النور، بجانب الحقيقية: «للمرأة أمجاد يستحيل أن يكسفها الظلام»؛ ذلك أن المرأة، بروحها الكبيرة ونُبل أخلاقها، تكلّلت بغار النصر، وتغلّبت على جميع القوى الساعية إلى عزلها وتغييبها عن المجتمع. ولا يزال أمام كلّ امرأة مجال لتحقيق مزيد من المنجزات المجيدة. كلّ ما عليها هو أن تواصل السعي لبلوغ الهدف.

لكن ما هو المجد؟ وما هي الوسائل والسبل المؤدية إليه؟ أيقوم مجد المرأة على أن تحمل السلاح وتشنّ الحروب على رفاق الحياة، وتقتل ما أمكن قتله من البشر، وتعود من الوغى متسربلة بثياب مضرَّجة بدماء الرجال؟ أم يقوم مجدها على استكشاف الأماكن المجهولة من الأرض، بحثًا عن الذهب والكنوز، والعودة إلى الوطن بثروات محمَّلة على الدواب؟

قطعًا لا! فتلك الأعمال وأمجادها مقصورة على الرجال.

فما هو مجد المرأة إذن؟ هل تنال المرأة المجد إذا جلست على عرش ملوكيّ، وتقلّدت الصولجان؟ أم إذا سكنت القصور الفخمة التي تنطوي على كلّ ما يمكن أن يشتهي الانسان؟ كلّا! فكثيرون من ذوي السلطان، الذين تربّعوا على العروش الرفيعة، لم يشتهروا إلا بالشراسة والظلم والمفاسد. وكثيرون منهم أمضوا حياتهم عبيدًا لأنانيتهم، حتّى إذا ارتحلوا عن هذه الدنيا، لم يخلّفوا شخصًا واحدًا يمتدحهم.

مجد المرأة كامن في تقواها وطهارتها. فإذا افتقرت إلى هاتين الخصلتين، لم يعُد لحكمتها وعلمها وفهمها وأناتها من قيمة. وحدَها التقوى تطهّر القلب والعقل، وتسمو بالأخلاق، وترفع من شأن الأنوثة. فعلى المرأة التي تنال المجد أن تتحلّى بالفطنة. وإذا تحلّت أيضًا بالعِلم، تجنّبت الفشل، وتأهّلت لخوض معترَك الحياة والفوز بالظّفَر. فالحكمة هي تاج المجد وصولجان السلطة عند المرأة.

إن البؤس والشقاء، اللذين تعاني منهما البشرية، هما ثمرة الجهل والغباء.

لذا، يستحيل على المرأة، أيًّا كانت، أن تقوم بدورها كأمّ وزوجة وسيّدة

بيت، ما لم تتمتّع بالفهم والفطنة لتجابه تقلّبات الحياة. وإن نحن أردنا تحسين الجنس البشريّ، وجب علينا أن نُعدّ نساءً صحيحات مثقّفات. إنّه لحقًّا من المستغرَب أن تسود العالمَ عمومًا والشرقَ خصوصًا الفكرةُ الخاطئة، من أن واجبات المرأة في المجتمع تقتضي أقلّ مما تقتضيه واجبات الرجل من تربية وتدريب. والحقيقة إني كثيرًا ما سمعت الناس يقولون: «لا أهمية في ذلك للبنت. المهمّ تدبير أمور الصبيّ».

إن واجبات الرجال في هذا العالم قد تكون على جانب عظيم من السموّ. وأنا آخر من يتجاهل تلك العظمة. لكن وظيفة المرأة هي أيضًا مقدّسة، لأن العالم سيكون على نحوٍ ما تلد النساء. ولأن المرأة هي أمّ الرجل، فإنها تطبعه حتمًا بطابع لا يزول من ضعفها أو موهبتها، من صحّتها أو مرضها.

من هنا ينبع يقيني أنه ينبغي على المرأة أن تتلقّى تربية واسعة حرّة، تؤهّلها للاضطلاع بمسؤولياتها كزوجة وأمّ ومربّية عامة.

كما ينبغي على المرأة أن تكون شاكرة وسعيدة للمكانة التي تشغلها في الخليقة. إنها لمكانة سامية مجيدة، تجعل من المرأة الملكة المهيمنة، القادرة أن تتولّى تدريجيًّا دور القيادة. لذا، ترتكب المرأة خطأ فادحًا إن هي لم تسعَ لتتسربل برداء النقاوة وتتتوّج بالحكمة والفطنة، وتتزيّن بحِلى الأناة والمثابرة. إني لا أستطيع أن أدرك لماذا لا تقنع المرأة بمكانتها، ولماذا ينبغي عليها أن ترغم الرجل على أن يتنحّى لتقوم بعمله؟ فلا يُجدي أبدًا أن نرغم الرجال والنساء على العمل في نفس الميدان، لأن ذلك يناقض نظام الطبيعة التي خصّصت بيئة لكل نشاط. فالمساواة بين الجنسين لا تعني المساواة في كمية الإنتاج، بل المساواة في مساهمة كلّ منهما في خير الجنس البشري.

على المرأة أن تفخر بأنوثتها، وبكونها أمًّا للرجال، ومطبّبة للعاهات الأخلاقية والنفسية، ومتبرّعة للبشرية بثمرة أعمالها وخبرتها. وهكذا يصبح الجنسان قادرَين على أن يتقدّما معًا في ميدان الفهم، والفكر، ومستعدَّين للاضطلاع معًا بحياة نقيّة مجيدة.

***

خطبة هَنا كوراني الثانية في شيكاغو

مكانة المرأة في سورية

السيدة كوراني من سورية
ترجمة: حازم إبراهيم
مبنى النساء في معرض شيكاغو: آب/ أغسطس 1893[(1)]

يُسهم التيار القوي لموجة التقدم الحاصل في العصر الحديث في القضاء على العديد من الأفكار المنحازة والمتعصبة المتعلقة بعالم المرأة في الشرق؛ فالسجلات التي تعود إلى غابر الأزمنة تخبرنا أن المرأة في سوريا ومصر وشبه الجزيرة العربية كانت في قديم الزمان تشغل مكانة مرموقة في الفن والشعر والموسيقى والأدب. كما تزخر لغتنا العربية بالشعر والنثر الأنثويين، وأنا أفخر بالقول إن النتاج الأدبي للمرأة، على ندرة كميته بالمقارنة مع النتاج الأدبي للرجل، يضاهيه ولا يقل عنه جودة. والمرأة المتعلّمة تسعى في يومنا هذا إلى استعادة العصور السعيدة والمزدهرة، وتجديد مساعيها في جميع المجالات التي يمكنها أن تحقق فيها إنجازات رفيعة، أسوة بالرجل؛ فقبل خمسين عامًا خلت، كان ثمّة ندرة في أعداد النساء القادرات على القراءة والكتابة بلغتهن الأم، بينما كانت فرائص الآباء والأمهات في تلك الفترة، وكلاهما يتمتعان [يتمتع] بالجهل، ترتعد من مجرّد فكرة تعليم بناتهم. كانت هذه الكائنات البائسة تفترض أن الفتاة التي تتعلم القراءة والكتابة سوف تستفيد من معرفتها تلك في كتابة رسائل الغرام إلى الرجال، وأن دورها كزوجة طيبة ومطيعة، وربّة منزل طيّبة وبارعة سينتهي تمامًا. ويبدو غريبًا أن مكانتها ودورها كأم لم يكونا يؤخذان بالحسبان، أو كانا يُعتبران أقل أهمية بالمقارنة مع دورها كربّة منزل.

فالنساء الشرقيات بطبيعة الحال خجولات ومتواريات عن أنظار عامة الناس. كما أن العادات الراسخة منذ أمد بعيد في البلاد التي تضعهن في موقع

(1) *The World's Congress of Representative Women*, ed. by May Wright Sewall (Chicago and-New York: Rand McNally and Company, 1894), p. 773-778.

معزول تحُولَ دون تأكيدهن على حقوقهن؛ فهنّ يعشن في الظل قانعات بأنهن غير معروفات إلا لعائلاتهن وصديقاتهن الحميمات. والقاعدة العامة هي أنهن يأخذن الحياة ببساطة، ولا يبذلن جهدًا لتغيير الواقع. وها هو التعليم يوقظهن من سباتهن الطويل ويفتح عيونهن على الواقع المزري للبلاد، ويحفزهن على التخلص من هذه العادات الرتيبة القديمة وعلى تبنّي عادات أفضل.

عملهن يبدأ في البيت، حيث يجب أن يبدأ كل تحسين، وهنّ بتْنَ أقدر على أداء دور الزوجة والأم، وفي موقع أفضل ليصبحن قرينات الرجال المتعلمين. كما أن مزاياهن متأخرة بأشواط عن مزايا النساء الأوروبيات والأميركيات، لكنك مع ذلك تجد العديد منهن ذكيات ومثقفات ومهذبات. فالمرأة الشرقية بطبيعة الحال، وعلى الرغم مما قاله مارك توين، هي امرأة جميلة ومتواضعة وعاقلة. وكل ما تحتاجه لكي ترتقي إلى مصاف شقيقاتها الغربيات هو تعليم جيد متحرر (ليبرالي) لا تحصل عليه حاليًا إلا جزئيًا.

شُفي الشرقيون من العديد من الأفكار المحافظة المتحيّزة المتعلقة بعالم المرأة، وباتوا يقرّون أن الارتقاء بالإنسانية والرفع من شأنها يقتضيان منح المرأة التي هي الأم تعليمًا جيدًا.

لدينا مدارس عديدة للفتيات، الأجنبيات منهن وبنات البلد على حد سواء، وهذه المدارس تعج بالطالبات. ويمكن تصنيف التعليم المتوفر في هذه المدارس على أنه يندرج في خانة التعليم الابتدائي؛ فالبنات يحصلن على تدريس عملي، عوضًا عن تدريسهن العلوم والآداب. وهن يدرسن لغتهن، ولغة أجنبية أو لغتين، ومبادئ الجغرافيا والرياضيات والعلوم. لكن كل امرأة، ومهما كانت جاهلة، أو متعلمة، أو غنية، أو فقيرة، تركّز اهتمامها على بيتها واحتياجاته، وتبذل كل ما بوسعها لجعله مكانًا لطيفًا وجميلًا. ولا زالت الطبيبات والمحاميات والموظفات الإداريات والمراسلات الصحفيات ورئيسات المعاهد غائبات عن البلاد. كما أن النساء الثريات المترفات، وكقاعدة عامة، يقضين وقتهن في تلبية مطالب المجتمع، والاعتناء بمظهرهن وجمالهن. وعادة ما يقع على عاتق الغالبية العظمى من الفقيرات اللواتي يعتمدن على

أنفسهن وعلى مواردهن الذاتية، أو القلة القليلة من النساء الطموحات والمفعمات بالطاقة، مهمة مواجهة عامة الناس والاضطلاع بتنفيذ مشاريعهن الخاصة. في الحالات المشابهة للحالة السابقة، وعندما يجدن أنفسهن في مواجهة مباشرة مع الفقر، فإنهن يساعدن أزواجهن في جميع الأعمال الزراعية، ويتجوّلن في أرجاء المدينة لبيع الزهور والفاكهة، وتلجأ بعضهن إلى الأشغال اليدوية (الحياكة والسنارة وغيرها) ويكسبن قوت يومهن من خلال المطرزات التي يصنعنها.

عندما كنت مسافرة في جبل لبنان الصيف الماضي، ذهلت لمقدار الرضا والبساطة اللذين لمستهما لدى النساء الفقيرات المجدّات، اللائي تعتبر حياتهن ضربًا من النضال الدائم، والكفاح اليومي ضد الفقر، ولكن مع ذلك فإنهن في أفئدتهن البريئة لا يدركن مرارتها وقساوتها؛ إذ يعتبرنها قدرًا مرسومًا، ولا يتوقفن أبدًا لمعاندة القدر.

النساء المجدّات، اللواتي يعشن غالبًا في أفقر أصقاع البلاد، التي لا تعرف العصرنة إليها طريقًا، وحيث لا يحاول عدم الرضا، وهو في نظري المحفّز الأقوى على التقدّم، كسر الرتابة الحزينة لحياتهن، لا يستحقنّ [يستحققن]الشفقة بقدر ما تستحقها أولئك النسوة اللواتي يَتُقْنَ إلى المعرفة ولا ينلنها بسهولة.

بالنسبة للائي لا يدفعهن الفقر إلى بذل الجهد، فإن الحكومة لا تشجع على تقدّمهن، فيما ينظر عامة الناس إليهن بشيء من التحيّز وبعين الريبة، ويعارضون غاياتهن، وينتقدون بلا أي شفقة أو رحمة جهودهن لأن يكون لهن أي أهمية في هذا العالم.

وكان جلالة سلطاننا الحالي عبد الحميد قد أنشأ مؤخرًا عدة مدارس للفتيات في مختلف أنحاء البلاد، ورغم أن التعليم في هذه المدارس محدود، إلا أن الأمل يحدونا، وليس لدينا ما نفعله إلا التمسك بأهداب الأمل، أن تزداد أعداد هذه المدارس وكفاءتها، وأن تقود إلى تعليم عام مجاني.

تتفاوت مكانة المرأة في المجتمع بحسب دينها. فالمجتمع الشرقي هو

على عكس المجتمع الغربي، بطيء ورتيب. الدين يحكم مجتمعنا، ورغم أن المجتمع المسيحي يتحسن بتأثير من النفوذ الغربي، إلا أن المحمديين سيواصلون، ولفترة طويلة، نفي النساء من أوساطهم، ولهذا السبب فإن التقدّم بينهم أبطأ بالمقارنة مع التقدّم بين المسيحيين. التجمّعات المجتمعية، بالمجمل، قليلة جدًا، وهي تتألف بمعظمها من مآدب الطعام، وجلسات لعب الورق (الشدّة)، والحفلات المنزلية، والأعراس.

أمّا حفلات الاستقبال العامة، والمحاضرات، والمكتبات، والنوادي الاجتماعية فهي غير معروفة، لكن حفلات الرقص والأمسيات الراقصة التي تجاري الموضة بدأت تجد طريقها إلى مجتمعاتنا. هي لا تُعتبر الشيء الصائب، وفي ذلك عين الحق، لأن البلد بحاجة إلى الترفيه الفكري وليس الرقص. وعزل الحوريات والحريم يضفي جوًا من الخمول والتحفظ على الاختلاط الاجتماعي للمحمديين.

إنه لخطأ عظيم الافتراض أن النساء المحمّديات غير سعيدات بسبب عزلتهن؛ فهن لسن كذلك، ولا يرغبن بخلاف ذلك، ولديهن الكثير من المناسبات التي يتطلعن إليها قدمًا بمتعة عارمة.

فالأعياد الدينية، وحفلات الزفاف، وأعياد ميلاد الصبيان هي مناسبات عظيمة في حياتهن. والبيت الذي كان يخيّم عليه الهدوء لشهور يضج فجأة كما ولو بلمسة ساحر بالموسيقى والغناء الشرقيين، فيما تزخر القاعات الرخامية وصالونات الاستقبال الخاصة بالحريم بالوجوه الجميلة والسيدات الرشيقات القوام المتقلدات للمجوهرات الثمينة والمتشحات بالملابس القرمزية والذهبية. وتقدم بعدها القهوة، والشربات، والمشروبات الشرقية المختارة غير المسكرة. المشهد كله ساحر ورائع وسعيد ومليء بالفرح، والسيدات المسلمات يشعرن بسعادة كبيرة في هذه المناسبات. ورغم كل القيود الدينية، إلا أن البريئات والبسيطات اللواتي يشغلن الحرملك يتلصصن من وراء الحجاب لاختلاس نظرة إلى ملمح من ملامح التنوير الحديث، والعديد من النزيلات متعلمات تعليمًا جيدًا ويكرّسن وقتًا كبيرًا لأنشطة المكتبات.

لا شكّ أن المسلمين الرجال، المحرومين من سحر المجتمع الأنثوي وتهذيبه، والذين سيشفون من سأم العديد من الأفكار القديمة، سينزعون في المستقبل حجاب العزلة السميك ويقودون المرأة إلى استعادة مكانتها كقرين أسوة بالرجال.

لقد أساء الكتّاب جميعهم تمثيل المرأة الشرقية في توصيفهم لعالمها، وقدراتها، وشخصها. فالأجانب الذين يتنقّلون في بلادنا لمدّة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، أو حتى لشهر، لا يحتكّون إلا بالطبقة الأدنى، وبالتالي فإن رأيهم بنسائنا غير موثوق. ليس الوضع العام للنساء محبذًا جدًا في أوروبا أو أميركا، لكن لا يمكن وصفه بأنه مثير للشفقة. العديد منهن يحكمن كملكات وهن محبوبات ومقدّرات ومحترمات من أزواجهن وأبنائهن.

الأمريكان الذين يستمتعون بميزات الاستقلال والحرية والمساواة لا يستطيعون بسهولة استيعاب العوائق الكثيرة التي تقف حجر عثرة في درب تقدّم المرأة الشرقية. وما حققته حتى الآن، على قلّته، يَعِدُ بالكثير من الإنجازات العظيمة في المستقبل.

ورغم أنها لم تتعلّم بعد أن في القوة وحدة، وبالتالي لا يمكن للكيانات [الكيانات] المنظمة إنجاز حركة عظيمة، لكنها، ومن خلال جهودها المركّزة، أسست مؤخرًا مدرسة أهلية للبنات، داعمة إياها بأموالها وموجهة إياها بعقلها. بطبيعة الحال، ليس هذا بالشيء العظيم في أميركا، لكنه في سوريا يعني الكثير؛ فهو يعني أن النساء قد بتن يدركن ضرورة التعليم، والحاجة إلى مدارس أهلية، وأنهن فوق ذلك كله يدركن المسؤولية الفردية عن العمل على النهوض بالجماهير.

نبذة عن الكاتبة

هَنا كسباني كوراني (زوجة أمين كوراني) هي أوّل كاتبة وأديبة سورية.

– ولدت في عام 1871 في قرية صغيرة بجبل لبنان، من أبوين سوريّين عريقين في النّسب.

- تلقّت تربيتها في المدرسة الأميركية للبنات في بيروت، حيث درست العلوم والفنون والآداب.

- قامت برحلات إلى سورية ومالطا وفرنسا وإنكلترا وأميركا.

- ألقت محاضرات في أميركا عن الشرق والمرأة الشرقية.

- من مؤلّفاتها **الأخلاق والعادات** (Manners & Habits).

- كانت من أتباع الكنيسة المشيخية البروتستانتية.

***

التمدن الحديث وتأثيره في الشرق

مدرسة الأحد في بيروت، 26 أيار/ مايو 1896

إنه لمّا كان واجب الإنسان الأهمُّ الخضوع للنظام والقوانين الشرعية، التي يمثلها أولياء الأمر وأصحاب النقض والإبرام، ولمّا كان الملك والسلطان منَّةً من الله تعالى يهبها من يِصطفيه من خلقه، وشرفًا ومنعة يرقي بهما من يشاء على كافة عبيده، كان الأَولى بنا استهلال هذا الخطاب بأدعية النصر وطول البقاء لحضرة جلالة مولانا السلطان الأعظم عبد الحميد خان، نسألك اللهم بأن تجعل الظفر خادمه، والسؤدد ملازمه، لترتقي الدولة والأمة في أيام سلطانه مراقي العز والفخار، إنك القادر على كل شيء.

العود أحمد، أيها السادة والسيدات، فقد فارقت وطني المحبوب منذ ثلاث سنوات، جلت في غضونها في أنحاء البلاد الأميركية، ثم وفي عواصم أوروبا الشهيرة، وشاهدت إذ ذاك جلَّ آثار التمدن الحديث على صنوفها المتنوعة، وغرائبها النادرة، ودرست بالدقة والمواظبة عوامل الارتقاء، وأسباب بسطة العيش والراحة التي قد انتشرت فعمَّت تلك الأقطار الغربية، ولولا ذلك لما حملت النفس خطارة المثول أمامكم وخطابكم بالموضوع الذي اخترته.

وما أقصد بهذه الإشارة العجب بسعة عوارفي، أو الإطناب بوفرة أدبي

واختباري. كلا، والحق شاهد بأن رحلتي إلى الأمصار التي قد تباذخ عمرانها، وتكاملت فيها معدات التمدن ومحركات الارتقاء كان لها أثر نافع وكبير فائدة؛ إذ فتحت عيني لمرأى ذاتي على حقيقة ما هي عليه من القصور، وبعد المدى عن سنوِّ نور المعرفة، وسمو بهجة الآداب، فحينما أبصرت، والبصر أول خطوة في منهاج التقدم، استفاقت جميع قواي العقلية، وهبَّت لاكتساب فوائد العرف وجمال التهذيب العقلي، فنشطت للعمل بإخلاص وَجِد، وأحييت جل الأوقات بالاطلاع والبحث، إلى أن وُفقت لاجتناء بعض الحقائق الكاشفة القناع عن أسرار المجتمع البشري، والدالة على المؤثرات في ارتقائه، والمسببات لانحطاطه، والمرء لا يرجع بعد عناء العمل إلا غانمًا بالرغائب، فهذا ما نشطني للوقوف خطيبة بينكم، ولي أيضًا في سعة مكارمكم، وغزارة ألطافكم شافع يُجرِّئني على هذا الإقدام. والله يقدرنا جميعًا على التعاون لدفع كل ضير، وتقريب كل خير. وهنا أسألكم عفوًا عمَّا يجيء في خطابي من الهفوات اللغوية والنقائص النحوية؛ فإني، وإن آثرت الكمال الكلامي، أراه وا أسفاه بعيدًا عن نوالي، فالمرء الذي غايته العلم والوقوف على أبحاث أهل العصر وفنونهم أمور يترتب على فوزها تقدُّم البشر وعمرانهم، لا يجد وقتًا يصرفه في درس علم الكلام، [ولا] سيما إذا كان متفرق الأوجه، متشعب الإيجاز، تكثر فيه أبواب الترجيح والتخمين، كما هو الحال في لغتنا العربية. وعليه، فإني وإن فضلت إبداء ملاحظاتي وأفكاري بزِيٍّ فائق في الجمال اللغوي، والإتقان البديعي، أراني في عجز عنه للسبب المتقدم، وفضل الألفاظ، كما تعلمون، أمر ثانوي بالنسبة إلى فضل المعاني، والروح أسمى من الثوب ومتقدمة عليه، وإن كان منسوجًا من خيوط الذهب، ومزركشًا بالفوائد الثمينة، فحوّلوا التفاتكم وانتقادكم، إن شئتم، إلى حقائق الكلام لا إلى صوره، ولي في حلمكم عضد متين.

وُجدنا، والحمد لله، في زمان النور وعصر البصر في ردحة من الدهر رقى الإنسان فيها منتهى التقدم، وبلغ من التمدن والتهذيب والكياسة حدًّا ساميًا. وهذا، ولا ريب، نعمة كبرى من لدن الخالق يجب على المرء مقابلتها بشكر واستحقاق يؤيده الانتفاع بما تيسر له من وسائط الترقّي، وعمَّ حواليه من

عوامل النمو، ولكن بدلًا من ذلك نرى فريقًا من البشر، وما هم بقليلين، دأبهم لوم الأيام لتهاونهم، وعتاب الزمان لتكاسلهم، كأن الماء والهواء والقبة الفلكية مع عقد نجومها أوقفتهم عن السعي في طريق التقدم، وصدَّتهم عن شدِّ الرحال نحو سبل الفلاح؛ كذا شأن الإنسان المتراخي عن العزم والإقدام، والمتقاعد عن العمل والاجتهاد في كل عصر وآنٍ.

ولقد اعتاد القوم العاجزون اتهام الظروف بحالتهم غير المرضية، وقد نسبوا لها من الظلم والعدوان والمعاكسة لسعادتهم ونجاحهم ما هي، بالحقيقة، براءٌ منه، ولا تأثير لها فيه يُذكَر، خيرًا كان أم شرًّا. فما هي الظروف التي طالما نعنفها، ونلقي التبعة عليها لكل ما يطرأ علينا من المكدرات؟! هي الحالة التي نُكوِّنها بواسطة عملنا جل أم خل في زمن وجودنا، هي الدائرة التي نرسمها حول حياتنا، هي تأثيرنا السلبي أو الإيجابي في كل ما جاورنا، فقولنا مثلًا: إنّ الظروف ساعدت الأمة الفلانية لبلوغ السؤدد والمجد، هو بالحقيقة إقرارنا، وإن يكن غير إرادي، بنشاط وإقدام وقوة احتمال وتوقد ذكاء تلك الأمة؛ إذ هذه، ولا خلافها، عملت على ارتقائها وعظمتها.

والأمر كذلك إذا تكلمنا عن الأفراد؛ إذ إن أفضل الظروف وأكملها لا قوة لها على أن تصنع من الخرنوب عنبًا، أو من الزعرور زيتونًا، وغاية ما تفعله هو التمهيد اليسير للنمو بحسب طبيعة النامي ليس إلا، فالتمدن الحديث الذي قد عمت آثاره النافعة أكثر الأقطار، والذي نجعله سببًا لتقدم الغربيين وتأخرنا، ليس سوى ظروف أوجدتها أعمال الإنسان، فهو نتيجة السعي لا مسببه، هو الثمرة لا البزرة التي يزرعها العامل في الأرض، والتي يقتضي لها تعبًا ومشقة وصبرًا قبل أن يجتني منها ثمرًا.

إن الإنسان بحسب طبيعته مدني؛ أي إنه يرتاح إلى الكن والمأوى ومجاورة بني نوعه، ومبادلة النفع بينه وبينهم، وغير ذلك ممّا لا يحصل، ولا تتيسر أسبابه سوى بتوطن المدن؛ ولذلك لقد سُمِّي ساكن المدن متمدنًا؛ تمييزًا له عن حال البداوة وتوطن القفر في خلال الصخور أو في الخيام. والبداوة وإن تكن متقدمة على المدنية إلا أن المدنية أرقى منها في جميع الوجوه؛ إذ إنها

أكثر مساعدة على حفظ النوع وتهذيب أخلاق الإنسان، وتعميم فوائد العمران التي إنما تتم بالتعاون والانتظام.

أمّا لفظة تمدن في لغتنا العربية المقتصرة في مغزاها اللغوي على الإقامة في المدن، فتقصر في التعبير عمّا يفهمه أهل هذا العصر بالتمدن، فالأوروبيون يعنون بالتمدن الحديث: التهذيب الأدبي، وترقّي العواطف الإنسانية، بقطع النظر عن المسكن وحالته من الضعة أو الضخامة، فالتمدن حسب عرفهم هو الإنسان المرتقي في إنسانيته من حيث عقله وآدابه وأخلاق، وهذا هو الحق؛ إذ ما فائدة المرء من سُكنى القصور والتنعم بجميع دواعي الترف وهو على جانبٍ كبير من الجهالة وخشونة العادات، ومن منا لا يُفضِّل متأدبًا بدويًّا على فظٍّ حضري؟ فالتمدن إذن هو كناية عن ارتقاء الإنسان المعنوي؛ العلمي والخلقي. وهذا ما أقصده في كلمة تمدن في خطاب، والله أعلم، وإليه المصير.

إن الله سبحانه وتعالى جعل الناموس الحاكم الوحيد في الكون، وقد قيد المخلوقات على اختلاف طبيعتها وأشكالها بشرائع ثابتة لا تتغير، وهذه الشرائع أزلية أبدية عامة، لا سبيل إلى المناص منها أو الاستغناء عنها. وهي عجيبة من حيث تأثيرها، فتجازي المطيع بالارتقاء والنمو، وتقاصُّ من يعصي بالتقهقر والفناء، وعملها على هذه الكيفية ممتد في الممالك الطبيعية الثلاث، تشاهد آثاره في المعدن والنبات والحيوان والإنسان أيضًا.

وقد علّمنا العلم الطبيعي بأن الارتقاء من فطرة الوجود ومن أهم دعائمه، واستشهد أولياؤه في إثبات هذه الحقيقة ببراهين جلية لا يمكن دحضها، والتي لا محل لذكرها في هذا المقام، فإذا كان الارتقاء كما قد تقرر واجبًا فطريًّا صار من العدل أن يقع التأديب على من تعدى هذا الواجب، كل بحسب نوعه وجبلته، إن كان بالقهقرى أو بالآلام أو بالفناء.

وقد أغنانا التاريخ عن الأدلة والبراهين لإثبات عمل هذا الناموس في الوجود الإنساني؛ إذ في سير الأمم ونصوصهم كثير ممّا يعلمنا بأن غاية الله في خلق الإنسان إنما العمران والارتقاء؛ فالأمم التي أدركت هذه الحقيقة، وسعت وراء بلوغها بجد وإخلاص، اتسع نطاق سلطانها، وتباذخ مجدها، وبعدت

مهابتها، وكان النصر حليفها، والفوز قرينها، ولكن عندما ظنت في نفسها الكمال، واعتقدت بأن الملك خاصتها، والعز رهين أمرها، وتحولت عن الجد إلى اللهو، وعن العمل إلى الرخاء والترف، فحينئذ تلاعبت بها أيدي الحدثان، فزال سلطانها، واضمحل مجدها، وخرب عمرانها، وأقام الله من بعدها قومًا أشداء ذوي أهلية لتدبير الممالك، وسياسة الشعوب، وتمهيد سبل الارتقاء.

وهذا تاريخ التمدن منذ نشأته إلى الآن، وهو حقيقة ما قدمته كل دولة وأمة نحو الارتقاء الإنساني العام؛ ولذا نتكلم عن التمدن القديم كمصري وكلداني وفينيقي ويوناني، وهلم جرّا، ثم ننعت التمدن الحديث بروماني، ثم عربي، ثم أوروبي، وهكذا إلى ما شاء الله، وإننا إذا تتبّعنا آثار التمدن في سلسلة حلقاته القديمة والحديثة، نجد بأن الإنسان مع ما تقلب عليه من الشئون والحالات لم يزل سائرًا رويدًا رويدًا نحو الارتقاء.

أجل! إن مسيره لم يكن جميعه في رياض وغياض، بل كثيرًا ما تجرحت قدماه بأشواك المتاعب وصخور المشقات. وهذه الحادثات وإن عاقته عن سرعة المسير، فلم تصدّه والحمد لله عن التقدم، وإذا قابلنا تمدننا الحاضر بما سبقه من التمدن نرى بأنه يفوق عليها جميعها بتأثيره الحسن في حياة البشر، وفي هذا إثبات كافٍ لما نقول.

إن التمدن الحديث يبتدئ تاريخه مع الرومان، تلك الأمة التي قهرت بسطوتها، وأدخلت تحت سلطانها أكثر العالم المعروف حينئذ، فلها الفضل الكبير في تأسيس تمدننا الحاضر على ركن التهذيب والمساواة والحرية، فالرومانيون، وإن لم يبلغوا الشأو الذي بلغه العرب ثم الإفرنج من بعدهم، قد أسدونا معروفًا جزيلًا باعترافهم بهذه المزايا وتعزيزهم لها، وإن أخصوا بها أنفسهم على الغير.

ثم لمّا ظهر الدين الإسلامي، وقامت دعوته دولة العرب الإسلامية، وتغلبت على ممالك الشرق والشعوب الأفريقية، وامتدت صولتها إلى الغرب بفتوحاتها الكثيرة، صرفت من العناية في ترقية دعائم التمدن بعضدها للعلوم والمعارف، وإنجادها للفنون والاستنباط ما تشهد بسمو فضله وجليل نفعه

صفحاتُ التاريخ وآثار الزمان؛ فقد كانت مدينة بغداد عاصمة ملكهم في الشرق عامرة بنوادي الأدب ومعالم العلوم، حافلة بطلبة العلم من جميع أنحاء المشرق، زاهرة بمن أمَّها من أرباب الشعر والنثر والفنون.

وقد كان الخلفاء ينعمون بالأموال الطائلة على أولي العلم وأصحاب العوارف رغبة في تنشيطهم، وإحياء آمالهم، لترقى بعلمهم الأمة، وتسعد أحوال العباد، وهكذا حتى بلغت دولة العرب من التقدم المدني على فروعه المتعددة درجة عالية تأخر عنها مَن سلفهم من الأمم. أمّا من جهة آثارهم في الغرب، فحدِّث عن ضخامتها وإتقانها وجمالها ولا حرج؛ فقد كانت بلاد الأندلس من إسبانيا دوحة التمدن في أوروبا، وقاعدة الفنون في تلك

الأيام، وقد غصّت أندية آدابها بالطلبة من جميع ممالك الإفرنج، فكان أشراف الإفرنسيس والألمان والإنجليز يَقدُمون الأندلس للاستفادة بآداب المسلمين وعلومهم، ولدرس عاداتهم لتهذيب أخلاقهم وتدميث طباعهم، فترى من ذلك أن فضل الإسلام على التمدن الحديث عظيم لا يقدر؛ فهم الحافظون الزائدون والمبلغون، فعنهم تلقّت أوروبا العلوم، وأخذت الآداب والفنون، فحرصت عليها، وأكرمت وفادتها، واشتغلت بها إلى أن رَقَتْ من العز والفخار درجة تُدْهش كل من زار بلدانها، وتجوَّل في أقطارها العامرة بالسكان، والغنية بكل ما يجعل العيش لذيذًا والعمر مديدًا.

وقبل الكلام في تأثير التمدن الحديث في عالمنا الشرقي، لا بدَّ لي من إبداء خاطر ملاحظ في ماهية هذا التمدن؛ تمدن اليوم، وما يختلف به عن تمدن الأمس، فأقول: إن أساس المدنية في كل زمانٍ ومكانٍ واحدٌ، والخلاف إنما يقع في كيفية البناء وهندسته وتزيينه، فالتمدن كان ولم يزل تعريفًا يتميز به الإنسان المدني المهذب عن غيره الهمجي العديم التهذيب، والتهذيب العصري لا شك أكمل من حيث معداته وأرقى، لاشتماله على جملة فروع خلت من التمدن القديم، فالتمدن الأوروبي اليوم يُعنَى به تهذيب عام، ومساواة عامة، وحقوق متبادلة، وما يلحق هذه من الامتيازات المدنية والسياسية والأدبية، وهو أيضًا كناية عن حالة إذا وُجد الإنسان فيها تمكّن من إشغال جميع قواه العقلية،

بحسب استعداده وأهليته للعمل؛ طمعًا بتحصيل الرغائب ونوال الخيرات. فالعمل الذي لا يأتي على صاحبه بالفوائد قريب الفناء؛ إذ الإنسان لا يسمح بعمله أن يقع مجانًا وبه كسبه ومنه معاشه، فقادة التمدن الحديث قد أدركوا هذه الأهمية، وعرفوا مقدار ما يترتب على إصلاحها من النفع العام، ولذا تراهم يشتغلون في تعديل الميزانية بين العمل والكسب، إن كان زراعيًا أم صناعيًا أم تجاريًا أم علميًا أم سياسيًا إلى غير ذلك من صنوف المهن، بغضّ الطرف عن مذهب العامل وجنسيته ومركزه في دائرة الاجتماع، أي إنهم يسعون في إعطاء كل حقه بحسب قضاء العدل لا بحكم الاستبداد، لاعتقادهم بأن:

قيمة الإنسان فيما يحسنه　　　أكثر الإنسان منه أم أقل

فالعالم قد تألم كثيرًا في الماضي، ولم يزل يتألم في الحاضر من ظلم هيئة الاجتماع، وعنفة أصحاب الغنى والوجاهة، حتى لقد آن الأوان الذي فيه ينتصب ميزان العدل على دكة القضاء، ليجزي كلَّ امرئ حسب ما جنت يداه، خيرًا كان أم شرًّا؛ فلا تقدم حقيقي ولا ارتقاء عام سوى بتعزيز هذا القضاء العدل قضاء يأمر به الدين، وتحث عليه الإنسانية أيضًا.

فالطبيعة حولنا التي يشرق نورها، وتهب نسيمها، وتقدم طعامها بالسواء لبني البشر على اختلاف النحل والمشارب، قد علَّمت ذوي البصيرة بوجوب الإقرار بحقيقة الإخاء البشري وهل يكون المخلوق أحكم من الخالق؟ حاشا، فإذا كان الله قد أوجد البشر جميعهم من دم واحد، وجبلة واحدة، في عالم واحد، وتحت سماء واحدة، أيليق بالإنسان أن يبغض جاره، وينتقم من قريبه إذا اختلف عنه في الرأي والعقيدة؟

أريد أن جميعكم تسألون أنفسكم هذا السؤال، ولذا تراهم، أي الغربيين، يصرفون الوقت الثمين والدرهم الرنان في نجدة العاجز، وتهذيب الجاهل، وطعم المسكين، وكساء البالي، فبنوا القصور الشامخة الفسيحة لتربية الأطفال الأيتام، ووجهوا العناية لأمر تعليمهم، فشبّوا رجالًا ونساءً ذوي أهلية واقتدار على العمل الكافل لاستقلالهم المادي، وقد شادوا أيضًا من الأبنية العظيمة عددًا كبيرًا ليأوي إليها العجزة والمرضى والمقطوعين [المقطوعون]، ولم

يتركوا من دائرة إحسانهم أحدًا ممّا تجوز عليه الرحمة إلا وأعانوه، حتى لقد أغاثوا الحيوانات البكم وأنقذوها من قسوة الإنسان.

هذا فضلًا عن أن أشرافهم وأغنياءهم يجلّون أهل العلم والفنون وإن كانوا وضيعي المنزلة، فيفتحون لهم أبواب منازلهم، لا بل أبواب قلوبهم، ويحلّونهم من دائرة إكرامهم المحل الأول، فتحيا نفوسهم من هذه المؤانسة، وتقوى في صدورهم عزائم الأمل، وينشطون للتآليف العميمة النفع، وينصبُّون على الاكتشاف المفيد، فتغتني بأثمار علمهم وبحثهم البلاد، ويستفحل عمرانها، وتسود في ربوعها الراحة مع الهناء. ومن أجل ما يعضدون به العلم، ويقدمونه في سبيل رواج بضاعة الآداب ما يوقفونه من الأموال الطائلة لبناء المدارس والكليات، لتهذيب الذكور والإناث، فإن أشهر معالم التدريس في البلاد الأميركية والأوروبية قد شادها أفراد أغنيائها، فهي معروفة بأسمائهم، وشاهدة بما لهم من الأسبقية في عمل الخير والإحسان.

فأوَّاه! أين المدارس في أوطاننا الشرقية التي قد أقامها دينار الأغنياء؟ أين الأغنياء الذين يوجهون العناية إلى ترقية بلادهم أدبًا وفنًّا؟ أين الدنانير التي تُصرف في مشروعات وطنية عامة؟ أمّا الجواب على هذه الأسئلة فهو سكوت تام تتخلله بعض التنهدات. لقد زلَّ الكثيرون إذ زعموا أن التمدن الحديث هو عبارة عن السكك الحديدية، والأسلاك البرقية، والأنوار الكهربائية، والبواخر، والعجلات، والقصور المنيفة، والرياش الثمين، والأثواب الفاخرة، وما شاكل من دلائل الترف والرفاه؛ فهذه جميعها ليست بالتمدن، بل هي من جملة آثاره، ومن آثار مبادئه ونتائج نظامه، بل هي أيضًا خادمته في اتساع نطاقه، وامتداد صولته، بل قد يمكن أن تتمدن البلاد ويسعد قومها وهي خالية من آثار الفنون الحديثة؛ إذ إن التمدن هو التهذيب الأدبي الناتج عنه التقدم المادي.

فالمرء من طبعه يميل إلى تحسين مسكنه وردائه إذا كانت أخلاقه حسنة، والشيء من معدنه لا يستغرب، فالتمدن الحديث ليس ما نشاهده في يومنا من معجزات التقدم المادي، بل هو الروح المحركة للعمل النافع المحيي للعزائم

الرميمة، المنبه على الإصلاح، والقائد إلى رياض الفلاح؛ ولذا تجدون البلاد التي استقرَّ فيها سابقة في العمران والحظ والفخار على ما سواها.

أمّا الغلط الذي ارتكبه فريق من البشر، فأحلّوا الثوب مكان الجسد، والنتائج مكان الأسباب، والصور مكان المعاني، ولم يميزوا بين الفاعل والمفعول، فقد أضر الضرر المخيف، وأخل الخلل الأكبر في دائرة الاجتماع، وذلك لامتزاج العرض بالجوهر، والادعاء بالفضل، والصدق بالرياء، فالتبس والحالة هذه وجه التمييز بين الحق وما شابهه من البطل، وأشكل على المرء تأدية الواجب بحسب الاستحقاق. ويا لله من شر التقليد وبلية الغرور! فإنهما يصدان العدل عن أن يكون الحكم الوحيد بين البشر، والعدل، كما تعلمون، أساس التقدم وعنوان السعادة، والله لا يظلم بمقدار ذرة – سبحانه وتعالى.

إذا أرسلنا الاستبصار إلى أحوالنا الحاضرة، ودققنا النظر في هيئة اجتماعنا، وبحثنا عن خفايا أمورنا وطباعنا، نجد أنفسنا في موقف تتجاذبنا فيه من جهة إلى أخرى تيارات معكوسة السير، مختلفة الطبيعة، متباينة التأثير، وسيئة المآل. وعليه، فلا حرج علينا إذا صرحنا وصرخنا بأننا في تعب مستمر، ونصب دائم، وحيرة قد أضلتنا عن الهدى، فمنعتنا من الحكم الصائب، والاختبار البصير.

وإن كان بينكم مريب بما أقول، هيَّا فليرافقني إلى أحد منازلنا عند المساء وقت الاجتماع العائلي، لأريه صدق الحالة التي وصفتها، والبصر أقرب إلى اليقين من الخبر، فهناك نلتقي بعائلة مؤلفة من رب البيت وسيدة المنزل والأولاد، ونحن إن لم نكن سوريين لا نستطيع أن نعرف جنسية أهل البيت ومقامهم من الوجود؛ إذ نراهم من جهة متفرنجين وهُم ليسوا بالإفرنج، ومتعربين وهُم ينكرون نسبتهم إلى العرب، أثوابهم مختلطة من العباءة والبنطلون، والقبعة والطربوش، والزي الأوروبي والشرقي، وكلامهم كأثوابهم مزيج من العربي والعجمي، وعوائدهم وأخلاقهم تمثل حالتهم الحجلية في كل إشارة يبدونها أو حركة يقدمونها؛ فهُم قوم قد أضاعوا ذواتهم في ظلام التقليد، ولاشوا شخصيتهم بحراب التشبه حتى أصبحوا كما هو مشهور عنهم. والإشارة هنا تغني عن التفصيل.

وما الذي نشاهده فيهم من المضحكات والمبكيات سوى آثار التمدن الحديث بين أقوام قد أقرَّ لجدودهم الزمان والتاريخ بفضل السبق على الشعوب كافة، في الاستعمار والاتجار والصناعة وسلك البحار واستنباط الفنون وإحراز المعارف، ولقد يسوءني [كذ] أيها السادة الإلماع لهذا الأمر المُكدِّر، ولكن الحقيقة أسلم من التمليق، وإن جرحت فجرحها قريب الشفاء، ولنعلم أن الحق من ربك، ولا يقبل لديه ضلال.

وما أقصد في هذا المقام معارضة الأفراد في حرية اختيارهم لملابسهم أو عاداتهم؛ إذ إنني من القوم الذين يحترمون الاستقلال الشخصي، ويقرون بوجوب منح الحرية لكل فرد من البشر باختيار أمر معيشته وتدبير بيته، ولكن موضوع الكلام يقتضي النبذ عن مظاهرنا؛ إذ هي المُعرِبة عن تأثير التمدن الحديث المحسوس بيننا، ولا نشاهد له أثرًا يذكر فيما دونها سوى فيما ندر، والنادر لا يبنى عليه قياس، ونحن فيما نقول لا نُعرِّض بأحدٍ لارتدائه بما يستحسنه ذوقه من الأزياء، ولكننا نلوم من يوجه الاهتمام إلى ظواهره جامحًا عن إصلاح بواطنه اغترارًا بأنها كفء لتهذيبه ولترقيته سلّم المدنية ودوائر الاجتماع السامية؛ أي أننا نلوم من يتمسك بالوهم، ويعتقده الحق، وما ذلك سوى ضلال مبين. وهذا الضلال هو ما نرجو إصلاحه بإصلاح أحوالنا المشوشة، فَهَمُّنا الوحيد تهذيب الإنسانية على سنن التمدن الحديث، بغضّ الطرف عن الملابس والأزياء.

أجل! لقد يجمل ويحمد بالشرقيين المحافظة على مظاهرهم الشرقية، ولكن هذا أمر ثانوي، لا تأثير له في نجاحنا المدني، فالممالك الأوروبية والأميركية جميعها تابعة للزي الباريزي، أمّا هذا فلا يصدها عن التقدم الوطني، وتحصيل رغائبها الدولية، وبلوغها ذروات السؤدد والمنعة، فالإنجليزي مثلًا ولو استحسن الارتداء بزي الإفرنسي والتشبه به في عادات اجتماعه، فهذا لا يجعله إفرنسيًا على الإطلاق، بل يبقى على خلاف ثوبه إنجليزيًا في الروح والمبدأ والمشرب، يضحّي أمواله وحياته في خدمة وطنه، وكذا الأمر مع الألماني والطلياني والروسي وغيرهم من الإفرنج.

ولقد طالما ندد كتبتنا بأبناء الشرق لاعتياضهم الزي الأوروبي عن الشرقي. وهذا وإن لم يخل من بعض الصواب، فهو ليس بالأمر الخطير، والأحرى بتوجيه النظر والإصلاح، فليرتدِ كلٌّ بما شاء من الأثواب، وما يستحسنه ذوقه من الأزياء، فإنه لا فرق عند التمدن إذا وضع على رأسه قبعة أم طربوشًا، أو ارتدى بعباءة أم ببنطلون، لأن هذه المسائل حكمها للأفراد؛ إذ ضررها ونفعها عائد [عائدان] على صاحبها، ولا تؤثر شديدًا في المصلحة العمومية، بخلاف الأضرار الناشئة عن الجهل، وظلام البصيرة، وخشونة الخلق، فإنها تعم في بلائها القاصي والداني، ويلحق شرها بجميع طبقات البشر بدون استثناء.

فلذلك، كان من الواجب الأول بذل الهمة في النظر إلى طباع الناس ومبادئهم الأدبية ومكانتهم العلمية؛ إذ على هذه يترتب أمر التقدم والارتقاء الحقيقي، فممّا تقدم نعلم ما هي حاجتنا الكبرى لنكون نحن والعصر على السواء. حاجتنا روح ينبث بيننا ليحيي فينا موات الهمم، ويجدد عزائمنا البالية، حاجتنا نور يشرق علينا سناؤه، فيبدد أوهامنا، ويجلو ظلام جهلنا، حاجتنا نار تحرق من بيننا الانشقاق والفساد وتفرُّق الكلمة والحسد والبغضاء، حاجتنا صوت يصرخ فينا للنهضة ويحثنا على العمل، حاجتنا يا قوم الإصلاح العام، وكفى بذلك إشارة لمن عقل، فمتى تمت هذه الشروط وحصلت لنا هذه الحاجات فحينئذ تبرأ جميع عللنا الوطنية، وتكمل نقائصنا المدنية، فيزيد شرقنا عمرانًا وتمدنًا وثروة، ويصبح العيش تحت سمائه النقية رغيدًا سعيدًا.

حقًّا إن آثار التمدن الحديث بيننا ليس كما كنا نروم، ولكن من له غدٌ فلا يليق به أن ييأس من تحسّن الأحوال وإصلاح الاختلال، فالزمان لنا كما هو لغيرنا، فلنشغله كما يشغله الفائزون في قصب السبق علينا، فنصير وإياهم على حدٍّ واحد، فالله مع العامل، والطبيعة نفسها تبتسم له فتُنيله الأرب. ونحن - والحمد لله - قوم قد برهنَّا فيما سلف بأن لنا حظًّا كبيرًا من الاقتدار وتوقّد الذكاء، ونحن اليوم نصيبنا من الخلق كنصيب أجدادنا العظام، إنما يعوزنا الإقدام والتعاون، فعلينا بهما وأنا أؤكد لكم بلوغ الأمنية واجتناء المسرات.

لقد قيل إن المقابلة تؤهل للحكم، فإن كان ذلك صوابًا، فحق لي الصراحة بأننا نحن الشرقيين أقل عملًا من الغربيين؛ فقد شاهدتهم على تفاوت منزلتهم وغناهم، رجالًا ونساء، يَصِلُونَ ليلهم بنهارهم سعيًا وراء غاية يطلبونها، وحاجة يودون الحصول عليها؛ فالغِنَى لا يمنع مقتنيه عن العمل، بل قد رأيت غنيهم يجِدُّ كفقيرهم، كل بحسب ما يرغب، فأميركا التي قد أدهشت العالم بتقدمها السريع وضخامة عمرانها الفائق حد الكمال هي من أشد الأمم انكبابًا على العمل، واحتمالًا للمشقات، حتى لقد كنت أعجب من خطوهم السريع في الأسواق كأنه متوقف على كل فرد منهم عمران الكون برمّته.

في جميع أقطارها «ولا قهوة الفرد»، وربما تتعجبون إذا أخبرتكم بأنه لا يوجد الواسعة يتردد إليها الرجال للتدخين وقتل الساعات بالألعاب كما هو الشأن عندنا؛ إذ إن الرجال مشتغلون في مهنهم المتعددة، فوقتهم أثمن من أن يضاع بالحانات والقهاوي، فرجال الأعمال ونساء الأعمال أيضًا هم عماد تقدم البلاد وركن فلاحها، وحيث إني أراهم قليلي العدد في شرقنا الفقير، فصار من الضرورة إذكارنا بأهمية العمل، وأنه غاية وجودنا، والحكيم من انتفع بالذكرى ولو كان مصدرها حقيرًا، والناس إنما تتعلم من بعضها البعض، ومن ظن بنفسه العصمة واعتقد بها الكمال فقد طغى.

ولقد عُدَّ للمرء فضل كبير أن يجهر برأيه ومعتقده وإن كثر المقاومون، أمّا أنا فأحسبه الفضل الأكبر والأدب الأسمى: الإصغاء بالاحتشام ولين العريكة إلى آراء الغير، أصابت الغرض أم لم تُصب، ذلك لما في التعصب بمذهب الذات والاستخفاف بمذهب السُّوى من الظلم والاعتساف والمنكر، ممّا يولد الخصام، لا بل الحروب، لا بل الخراب، فلينتبه الراقدون.

وأمّا الموانع التي تؤخرنا عن مجاراة الغربيين في تمدنهم وتقدمهم بالفنون والمعارف، فكثيرة، منها: الإفراط في محبة الذات التي هي كمحبة المال، أصل لكل الشرور. وقد علمت علم اليقين بعد معاشرتي للغربيين ووقوفي على نوايا قلوبهم بأن الشرقي الحديث، وخصوصًا المدعي العلم والتمدن، هو أشد حبًّا لذاته وحرصًا على نفعه الشخصي من غيره من الأقوام.

وكثيرًا ما قادتني الغيرة على البحث مع أصحاب الغنى والوجاهة في قطرنا بموضوع الإصلاح، وبما يترتب على نجدتهم للمشروعات الوطنية من الخير العام، فكان ملخص جوابهم أن مساعدة المصلحة العمومية في بلادنا ضرب من الجنون، نظرًا لتفرق الكلمة وتشويش الأحوال. أما أنا، فلم يكن بوسعي موافقتهم على هذا الرأي، لعلمي وتيقّني بأن الاهتمام بالخير العام يزيد وجوبه كلما زادت الحاجة إليه؛ فالأسباب التي قدَّموها عذرًا لإغفالهم هي نفس الأسباب الداعية إلى ضرورة الإسعاف، فالصحيح كما هو مشهور لا يحتاج إلى الدواء، والرثاء إنما يكون مكان الفتق، فهؤلاء ومن نحا منحاهم في الانهماك بصالح الذات والإعراض عن نجدة المصلحة العامة فقد أضر بنفسه وهو لا يدري؛ إذ إنه لو تأمل أواه، ويا ليته يتأمل، لعلم أن سعادة المرء على الغالب إنما تتم وتتيسر بسعادة من حوله من البشر، وأن النجاح لا تدنو أسبابه إلا إذا كان مشتَركًا به متفرقًا بين العامة. وهذا أمر يؤيده الاختبار، وحقيقة راهنة قد أقرَّ بها أولو البصائر والروية؛ فالمرء الذي همُّه في الدنيا راحة نفسه ومصلحته الشخصية، وفي طاقته نفع الغير ولا يفعل، فهو من الجهل والسقط بمكان قصيٍّ، وكفى بهذا إنذارًا لمن فطن.

أمّا الأسباب الأخرى، وقد مرَّت الإشارة إليها فيما سبق، هي [فهي] عبارة عن تشبثنا بالقشرة دون اللبِّ، وقَطفِنا الأوراق دون الثمار، واغترارِنا بالوهم، وإعراضِنا عن الحق.

وهذا جميعه باطل؛ فانكبابنا على التقليد قد أعمى بصائرنا عن تحصيل النافع، وأخَّرنا عن الوصول إلى معرفة جوهر البواعث على الارتقاء المدني، فكأني بنا قد خُلبت منا الأنظار، وسُحرت فينا العقول بما تجلَّى لدينا من جمال ظواهر التمدن، فشاقت نفوسنا للحصول على مثلها كي تساوي بيننا وبين أربابها الذين نشعر بأنهم أرقى منا علمًا، وأوسع أدبًا، وأسمى إدراكًا، فتقلدناها بقدر ما وصلت إليه مقدرتنا، ثم نظرنا ذواتنا في المرآة فأعجبنا في الصورة المنعكسة عنها، وتهللنا لفوزنا السريع بأمنيتنا الكبرى، وانصرفنا ونحن من الخيلاء والمرح ثملين وما نحن إلا بالخاسرين.

ثم في تحقيرنا للعلم وذويه، واستخفافنا بأصحاب العوارف والمتفننين من أهل أوطاننا، لمن أعظم العائقات المانعات من تقدمنا المدني؛ فالتمدن إنما تكون درجته موازية لدرجة العلم المعاصر له، فبأفوله يتقهقر حتى يضمحل، وبنموه يتعاظم ويتكامل، ولست أقصد بالعلم هنا مجرد الاقتصار على معرفة بعض مفردات لغوية وقواعد نحوية، كمثل إعراب قام زيدٌ وقعد عمروٌ وما شاكل، فالعلم الذي لا يتعدى هذه الحدود هو أكثر الأحيان مجلبة للضرر، لِما يتأتى عنه من الدعوة الباطلة والعجب والغرور.

إنما المراد بالعلم معرفة الحقائق الطبيعية، كالزراعية والنباتية والحيوانية والكيمية والجوية والفلكية والأدبية، كعلم أخلاق البشر وعادات الاجتماع وما ذهب على مذهبه، فهذا هو العلم العامل في التقدم، والدافع إلى النجاح. وإنا نظرًا لكساد بضاعة العلم في بلادنا الشرقية، وحقارة من يتاجر بها، لست ألوم من يهجر اليراع والرقاع، ويحلف ألّا يأخذ بيده كتابًا وفي نفسه رمق.

والمرء الذي كلما زاد علمه زاد معه إفلاسه وتعسه، كما هو الواقع بيننا، فلا حرج عليه إذا فضَّل الحياة وهو أمُّي على التضور جوعًا وعقله مشبع بالأوضاع العلمية والفقرات النثرية والشعرية، فالعالِمُ يجب أن يتعيش بعلمه، كما أن التاجر والصانع والزارع يعتاشون بعلمهم، والمرء الذي يصرف وقته ونشاطه، لا بل دمه وحياته، في خدمة العالم الأدبية، له الحق الكبير بعوضٍ يكفل له سد حاجاته المادية، كمن يحرث الأرض للغذاء، ويحيك الثوبَ للكساء، وهلم جرّا، ولكن من العجيب الذي لا يدرَك كنهه أن الإنسان يبذل درهمه عن طيبة خاطر في اقتناء حاجاته المادية، ولكنه يحبسه عن إحراز ما يرقي إنسانيته، ويُقرِّبه من الله وملكوته.

هذه هي بعض المسببات لما هو واقع في جسم مجتمعنا من العلل، ولا بد من وجود غيرها ممّا أنزل بنا نوازل البلاء، وفتك بنا فتكًا ذريعًا يعزُّ معهُ الدواء، ولكن المقام لا يسمح بأكثر ممّا مر، وفيما ذكر كفاية لبصير. والله أسأل أن يمنحنا قوة الغلب على كل مقاوم في طريق ارتقائنا، إنه المجيب القدير.

والآن أستسمحكم أيها السادة الكرام بتوجيه الخطاب إلى حضرة أخواتي

السيدات، فالمراد اختصاصهن ببعض الملاحظات، والحب كما تعلمون خصائص.

وأنتن أيتها الأديبات المُجمِّلات ليلتنا هذه بمحضركن الأنيس، وطلعتكن الباسمة بمحاسن الخلق والأخلاق أرجوكن لطفًا ومِنَّةً الانتباه إلى ما سأوُردُه على مسامعكن في سبيل التفكرة، طبقًا لما يوافقه موضوع الكلام، ولا عَدِمتكُنَّ الإنسانية والمدنية من نصيرات كريمات.

لقد تكلمت فيما مرَّ عن وجه الخلاف الواقع بين التمدن الحديث والقديم، ولكنني عدلت فيما ذكرته عن الصراحة بالفرق الأهم بينهما لأحفظه لهذا المقام؛ ذلك لحصوله عن تأثير المرأة في التمدن الحديث تأثيرًا لم يُرْوَ له مثيل في نصوص أخبار الأولين.

أجل! لقد جادت صفحات التاريخ بذكرى عدد من النساء الممتازات بقوة العقل والدربة والإقدام على الأعمال الخطيرة، ولكنهن قليلات يقعن تحت حكم الشاذ لا العام، أمّا في عصرنا الحاضر الذي لقَّبه فيكتور هيجو، الشاعر والمؤلف الإفرنسي الشهير، بعصر النساء، فقد أقرَّ قادة العلم والفنون بالمساواة المعنوية بين الرجل والمرأة هذا، اللهم إذا تساوت لهما معدات التهذيب والتدريس، ولنا من الحاضر آيات بيّنات معلنات بصدق ما نقول.

فتأثير المرأة في التمدن الحديث مقارن في فوائده مآثر الرجال، فلها الآن في البلاد الغربية من آثار التأليف والاكتشاف والاستنباط ما كان يظن أن بينها وبين عقل المرأة مثلما بين ملتقى الخافقين، وقد مدت يدها للعمل في جميع فروعه، ولم تترك بابًا إلا وطرقته، ولا مجالًا إلا ونزلته، وفازت فوزًا مبينًا في كل ما شرعته، وأجبرت الرجل على الاعتراف بفضلها واقتدارها، فأُعطيت من الحقوق الشرعية والمعنوية ما لم تحلم به امرأة من قبل.

وقد أسعدني الزمان فشاهدت المرأة العصرية في كمال مجدها، فرأيتها الكاتبة المجيدة، والخطيبة المصقعة، والمتشرعة المدققة، والطبيبة الماهرة، والمخترعة النافعة، والسياسية المحنكة، ورئيسة الجمعيات الوطنية واللجنات

الخيرية، والقائدة للهيئة الاجتماعية. وهي في كل ذلك ذات رقةٍ ودعةٍ وأنسٍ ولطفٍ وحلاوة ممّا يأخذ بمجامع القلوب، ويأسر الألباب بسحره الحلال.

وقد دخلت منزلها فوجدته على حدٍّ فائق من الترتيب والنظافة والظرافة، قد اجتمعت فيه موارد الراحة ومناهل الملذات، وقد رأيت زوجها سعيدًا مفاخرًا بجمالها وآدابها وحكمتها، وأولادها صحيحي الأبدان، مهذبي الآداب، ومثقفي العقول، فَذُهِلْت ممّا أبصرت وقلت في نفسي: وا حيرتاه! كيف تسنّى لها والحياة، كما أعلم، قصيرة أن ترقى هذه المعالي السامية والحظوة الكبرى؟ فوجدت بعد الفحص والمراقبة بأن ذلك هو نتيجة السعي واستغنام الفرص وترتيب الأوقات؛ فهي تعمل من الصبح باكرًا لحين منتصف الليل طبقًا لنظام لا تتعداه، والذي يمكنها من القيام بشئون شتى.

فهذا ما أرغب أن أوقفكن عليه أيتها الأديبات لتعلمن أن للمرأة العارفة العاملة تأثيرًا لا يُحدُّ في ترقية البشرية مدنيًا ومعنويًا، وأيضًا لكي أؤكد لكنَّ بأنه يستحيل عليها مجاراة الرجل في سبق العلم والآداب إن لم تعول على نفسها، وتطرق باب الجد بيمينها، فالرجال، كما اشتهر عنهم، يؤْثرون أنفسهم بالسيادة، ويختصون ذواتهم بكمال العقل والحكمة والدربة، فهم على ما يعتقدون سلاطين الكون، وأصحاب الحكم المطلق الذي يجب أن تخضع له وتنقاد إليه المخلوقات طرًّا والمرأة من الجملة.

وقد يؤيدون دعواهم هذه بمجرد النطق بأن الطبيعة قد حبتهم بهذه الامتيازات، وفضّلتهم بصلابة الجسم وقوة العقل على سائر من في الوجود؛ ولذلك فقد حقَّ لهم السلطة على المرأة الناقصة في الفهم والإدراك، ووجب عليها الرضوخ لإرادتهم، والامتثال لأمرهم. والاختبار علّم المرأة صدق ما أصف به أسيادنا الرجال، ولا حاجة إلى إقناعها بحقيقة ما هم عليه من وحدة الملك والجبروت، فهل يكون من الرأي والحالة هذه بأن المرأة تتقاعد عن النهضة في طلب حقوقها الطبيعية من تهذيب وتثقيف ومساواة؟ وهل تفعل حسنًا بعد إذ علمت من استبداد الرجل ما علمت بأن تعتمد على قوته ليدفعها إلى التقدم، ويفتح أمامها باب الفخر، ويكللها بتاج المجد والانتصار؟

الحكمة تجاوب: كلّا. وأنا قد علمت بعد أن درست تاريخ النهضة النسائية في بلاد الغرب، بأن الرجل لم يكتفِ بأن يدع المرأة وشأنها، بل قد أجهد قواه في سبيل مقاومتها وإرجاعها إلى حالها الأول من الجهل والاستعباد، أمّا هي ففازت بجهادها للحرية، وبإعلائها لشأن جنسها. والحمد لله. والحق يعلو بإذنه تعالى، وما كان من الرجل حينئذ، لاحظن أيتها السيدات، إلا أن أسرع مُطأطئ الرأس، خاشع الجانب، مُهنِّئًا لها بالغلبة، وصار يخاطبها كسيدتي ومولاتي وسلطانتي، وغير ذلك من ألقاب التجلة والتعظيم، والمرأة نظرًا للطافة طبعها، ورقة عواطفها، وطيبة قلبها، عفَتْ عن ظلمه السابق، وأكدت له بأن جهادها واحتمالها للمصاعب لم يكن [يكونا] حبًّا بالسيادة، بل طمعًا في تحصيل العدل والمساواة.

فعندئذ ارتفعت منزلتها في دائرة إكرام الرجل وأي ارتفاع، فزاد شغفًا بجمالها المعنوي، وأصبح يقدمها على نفسه في كل شيء، ومن ثم سعى الاثنان معًا يدًا بيد في العمل المُرقِّي لبني الإنسان، والمُقرِّب لسعادتهم، فنشأ عن ذلك التمدن الحديث وما يتبعه من الرغد والمجد والعزة والارتقاء.

فعِلمُنا بعِظَم ما فعلته وتفعله المرأة في الغرب يجب أن يثير فينا نار الغيرة للإقدام على مثله في الشرق، فالوطن والرجال أيضًا في حاجة كبرى إلى معونتنا نحن النساء، فلنُقدّم لهما من فرائد آدابنا وعلومنا وتهذيبنا ما يُقدِّرنا عليه الله، ووسائل تهذيبنا وإن تكن متأخرة عما للغربيات فهي مع ذلك كفء لأن تحركنا إلى النهضة من خمول الغفلة والتهاون، وتؤهلنا للقيام بمهام [بمهمات] الحياة العصرية بحسب مقتضى التمدن الحديث؛ فلتكن المرأة الشرقية عمادًا في بناء مدنيتنا على أساس العلم والنور، ولها بهذا فخر لا يزول.

* * *

الملحق (3)

الصور





1- هَنا كوراني (صورتان)



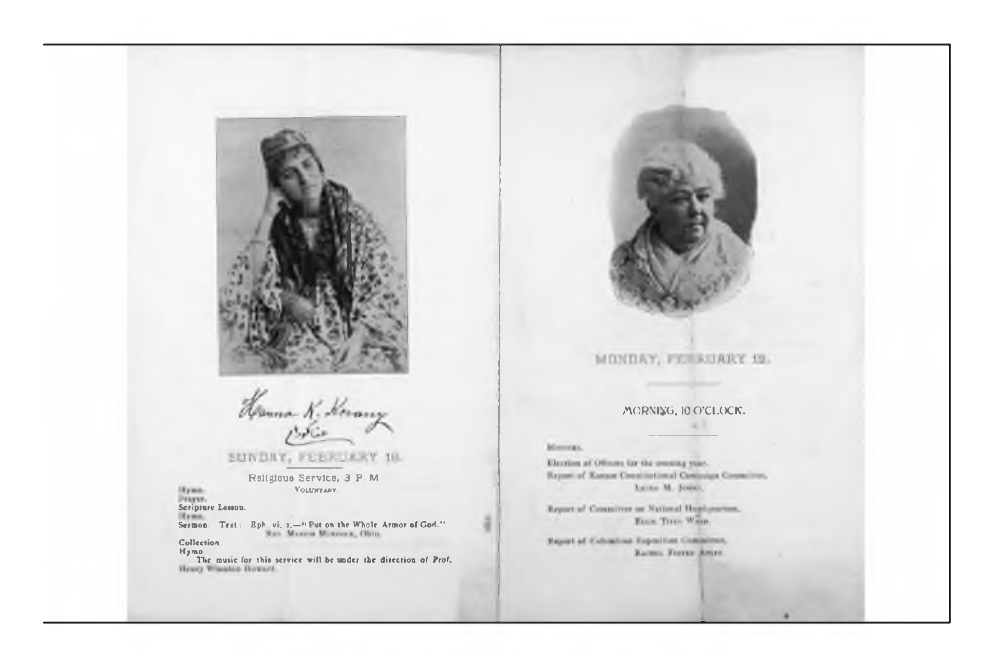
2- زينب فواز



3- بيرثا هونوريه بالمر



4- السيدة ماي رايت سيوول



SUNDAY, FEBRUARY 18.

Religious Service, 3 P. M

VOLUNTARY.

Scripture Lesson.

Sermon. Text: Eph. vi. 2.—"Put on the Whole Armor of God."

Collection.

Hymn.

The music for this service will be under the direction of Prof.

MONDAY, FEBRUARY 19.

MORNING, 10 O'CLOCK.

5- بطاقة دعوة لمحاضرة من محاضرات هَنا كوراني



لسان الحال

Beyrouth & Liban un an 14 Fcs
Etranger „ 18 „

ANNONCES & INSERTIONS

à la première page la ligne „ 60 c.
à la dernière page „ „ „ 30 c.

S'adresser à Mr Khalil Sarkis directeur et propriétaire du Journal et de l'Imprimerie des Belles-Lettres.

BEYROUTH (Syrie)

معرض شيكاغو

6- رسالة أنطوانيت واكان لأستير أزهري منشورة في جريدة **لسان الحال**



National Council of Women
of the United States

Mrs May Wright Sewall.

My dear Madam

You left Chicago on Friday day afternoon taking with you all that was charming noble, beautiful, enlightening, entertaining in the week of the [illegible] [illegible] and that is your [illegible] presence which used to shed light, charm and [illegible] the surrounding atmosphere. To say that I feel keenly your departure, to say that I miss so much the light of your eyes, the sweetness of your voice, the [illegible] of your conversation would be but a useless repetition of the same thing over and over again. Yet I love to linger on this luminous page of my American life, yea of my whole life, which created in me as a new force for future activity and led me to believe that women could be ever so great since you yourself are

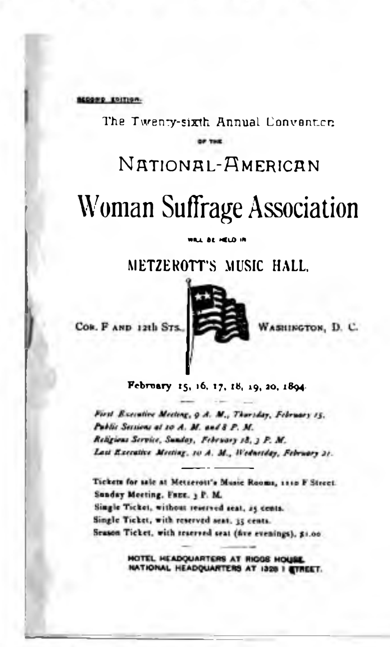
7- صفحة من رسائل هَنا كوراني إلى ماي سيوول



8- ملصق من ملصقات المؤتمر النسائي



9- غلاف كتاب معروضات المعرض النسائي



SECOND EDITION.

The Twenty-sixth Annual Convention

OF THE

NATIONAL-AMERICAN

Woman Suffrage Association

WILL BE HELD IN

METZEROTT'S MUSIC HALL,

COR. F AND 12th STS. WASHINGTON, D. C.

February 15, 16, 17, 18, 19, 20, 1894.

First Executive Meeting, 9 A. M., Thursday, February 15.
Public Sessions at 10 A. M. and 8 P. M.
Religious Service, Sunday, February 18, 3 P. M.
Last Executive Meeting, 10 A. M., Wednesday, February 21.

Tickets for sale at Metzerott's Music Rooms, 1110 F Street.
Sunday Meeting, FREE, 3 P. M.
Single Ticket, without reserved seat, 25 cents.
Single Ticket, with reserved seat, 35 cents.
Season Ticket, with reserved seat (five evenings), $1.00

HOTEL HEADQUARTERS AT RIGGS HOUSE.
NATIONAL HEADQUARTERS AT 1328 I STREET.

10- دليل وزِّع مجانًا حول مؤتمر حق التصويت للمرأة في شباط/ فبراير 1894 والذي شاركت فيه هَنا كوراني.



11- غلاف دستور جمعية باكورة سوريا

المراجع

1- العربية

آل جندي، أدهم. **أعلام الأدب والفن**. ج 2. دمشق: مطبعة الاتحاد، 1958.

إسماعيل، سيد علي. «مريانا مراش.. ريادة تاريخية أم فكرية». مجلة **تراث** (أبو ظبي). العدد 144-145 (تشرين الأول/ أكتوبر - تشرين الثاني/ نوفمبر 2011).

أمين، أحمد. **فيض الخاطر**. ج 5. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1944.

بارون، بث. **النهضة النسائية في مصر: الثقافة والمجتمع والصحافة**. ترجمة لميس النقاش. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1999.

الجنان. السنة 1. مج 2. ج 15 (1870).

______. السنة 2. مج 1. ج 2 (1871).

______. السنة 5. مج 1. ج 8 (1874).

______. السنة 6. مج 1. ج 11 (1875).

______. ج 7 (1882).

حبيب، توفيق. **الفجالة قديمًا وحديثًا**. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012.

الحمصي، قسطاكي. **أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر**. حلب: المطبعة المارونية، 1925.

خلف، تيسير. **نشأة المسرح في بلاد الشام: من هشاشة القانون إلى فتاوى التحريم، 1847–1917**. الشارقة: الهيئة العربية للمسرح، 2018.

______. **وقائع مسرح أبي خليل القباني في دمشق، 1872–1883**. ميلانو: دار المتوسط، 2019.

داية، جان. **المعلم بطرس البستاني: دراسة ووثائق**. [د. م.]: منشورات مجلة **فكر**، 1981.

دستور جمعية باكورة سورية وخطب بعض أعضائها. بيروت، 1880.

زيدان، جرجي. **تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر**. ج 2. بيروت: دار مكتبة الحياة، 2005.

الشدياق، أحمد فارس. **الساق على الساق في ما هو الفارياق**. باريس: [د. ن.]، 1855.

الصدة، هدى (إشراف وتقديم). **الفتاة: جريدة علمية تاريخية أدبية فكاهية 1892–1893**. ط 2. القاهرة: مؤسسة المرأة والذاكرة، 2007.

طرابلسي، فواز. **تاريخ لبنان الحديث من الإمارة إلى اتفاق الطائف**. بيروت: دار الريس، 2008.

طرابيشي، جورج. **معجم الفلاسفة: الفلاسفة، المناطقة، المتكلمون، اللاهوتيون، المتصوفون**. ط 3. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2006.

طرازي، فيليب دي. **تاريخ الصحافة العربية**. ج 2. بيروت: المطبعة الأدبية، 1913.

الفتاة. السنة 1. ج 1 (20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1892).

______. السنة 1. ج 2 (1 كانون الثاني/ يناير 1893).

______. السنة 1. ج 9 (1 آب/ أغسطس 1893).

______. السنة 1. ج 10 (15 شباط/ فبراير 1894).

فواز، زينب. **الرسائل الزينبية**. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014.

كحالة، عمر رضا. **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام**. ج 5. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1984.

كوراني، هَنا. **إنهاض الغيرة الوطنية في ترقية البضائع الشرقية**. بيروت: مطبعة جمعية الفنون، 1893.

______. **التمدن الحديث وتأثيره في الشرق**. بيروت: مطبعة المعارف، 1896.

المقتطف. السنة 4. ج 9 (شباط/ فبراير 1880).

______. السنة 6. ج 6 (تشرين الثاني/ نوفمبر 1881).

______. السنة 7. ج 1 (حزيران/ يونيو 1882).

______. السنة 8. ج 6 (آذار/ مارس 1884).

______. السنة 10. ج 9 (حزيران/ يونيو 1886).

______. السنة 11. ج 6 (آذار/ مارس 1887).

______. السنة 11. ج 7 (نيسان/ أبريل 1887).

نخل، جورج. **سلسلة أعلام من لبنان**. طرابلس: دار الشمال، 2011.

نعمة الله، هيكل وإلياس مليحة. **موسوعة علماء الطب مع اعتناء خاص بالأطباء العرب حياتهم وآثارهم**. بيروت: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، 1991.

2 – الأجنبية

Abrams, Lynn. «Ideals of Womanhood in Victorian Britain.» BBC, published: 9 August 2001. at: http://www.bbc.co.uk/history/trail/victorian_britain/women_home/ideals_womanhood_01.shtml

Babcock, Barbara. «Women's Rights, Public Defense and the Chicago World's Fair.» *Chicago-Kent Law Review*. vol. 87, no. 2 (April 2012).

Boomhower, Ray E. *Fighting for Equality: A Life of May Wright Sewall*. Indianapolis: Indiana Historical Society Press, 2007.

The Congress of Women Held in the Woman's Building: World's Columbian Exposition, Chicago, U.S.A., 1893. ed. by Mary Kavanaugh Oldham Eagle. Chicago; Philadelphia: Monarch Book Company, 1894.

Elliott, Maud Howe (ed.). *Art and Handicraft in the Woman's Building of the World's Columbian Exposition Chicago 1893*. Paris; New York: Goupil & Co., Boussod, Valadon & Co., Successors, 1893.

Erhan, Çağrı. *Türk-Amerikan İlişkilerinin Tarihsel Kökenleri*. Ankara: Imge Kitabevi Yayınları, 2001.

Hamzah, Dyala (ed.). *The Making of the Arab Intellectual: Empire, Public Sphere and the Colonial Coordinates of Selfhood*. London & New York: Routledge, 2013.

Harper's Bazaar. vol. xxvii, no. 17 (28 April 1894).

Harper, Ida Husted. *The History of Woman Suffrage, vol. IV: 1883-1900*. [n. p.]: Susan B. Anthony, 1902.

Higginbotham, Evelyn Brooks. *Righteous Discontent: The Women's Movement in the Black Baptist Church 1880–1920*. Cambridge: Harvard University Press 1993.

List of the Books in the Library of the Woman's Building, World's Columbian Exposition, 1893.

Mackintosh, Mary. *Damascus and Its People: Sketches of Modern Life in Syria*. London: Seeley, Jackson and Halliday, 1883.

Smith, Karen Manners. *New Paths to Power: American Women 1890-1920*. New York: Oxford University Press, 1994.

Ross, Ishbel. *Silhouette in Diamonds the Life of Mrs. Potter Palmer.* New York: Harper & Brothers 1960.

Sewall, May Wright. «Letter from Matilde Bajer to May Wright Sewall (1917).» Indianapolis Special Collections Room, Indianapolis Public Library.

Weimann, Jeanne Madeline. *The Fair Women.* Chicago: Academy Chicago, 1981.

«Women's Legal History: A Global Perspective.» *Chicago-Kent Law Review.* vol. 87, no. 2 (August 2012).

The World's Congress of Representative Women. ed. by May Wright Sewall. Chicago and New York: Rand McNally and Company, 1894.

فهرس عام

- ت -

-ث-

- ج -

